ربيع جابر

رواية

# رالف رزق الله في المرآة









دار الآداب

ربيع جابر

# رالف رزق الله في المرآة

رواية

دار الآداب - بيروت

رالف رزق الله في المرآة

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٩٧

هذه الرواية من نسج الخيـال. بعض الأسمـاء والأحداث الواردة فيها حقيقية، لكن الضرورة الفنية اقتضت صياغتها على نحو مختلف. وجميع الشخصيات في هذه الرواية هي أولا وأخيرا صنيع مخيلة المؤلف، وإن تشابهت أحيانا مع شخصيات حقيقية.


Twitter: @ketab_n

# الجزء الأول

## كان يُدعى رالف رزق اللّه


Twitter: @ketab_n

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

في صباح السبت ٢٨ تشرين الأوّل ١٩٩٥، أوقف سيارته التويوتا الخضراء بمحاذاة الرصيف أمام مقهى دبيبو، ثمّ ترجّل منها مسرعاً، وتسلّق الحافّة الحجريّة القصيرة، وقفز إلى الفضاء.

قبل أن يقفز شرّع ذراعيه كالصليب. خلفه بيروت، وقبالته صخرة الروشة. كان يرتدي بنطلونه الجينز القديم، والقميص الكاكي الذي اشتراه قبل سنتين.

كان في الخامسة والأربعين من عمره.

ورمى نفسه.

هوى عن علوّ خمسة وأربعين متراً، وارتطم بالصخور، ثم طفا على وجه المياه.

هكذا انتهى كلّ شيء.

***

في صباح الاثنين ٣٠ تشرين الأوّل ١٩٩٥ قرأت نعيه في صحيفة «النهار». العمود الثاني من الأسماء في صفحة الوفيات.

النعي يتكرّر ست مرّات، وفي ستة مربعات. جهات مختلفة تنعاهُ: عائلته وأهله. رئيس الجامعة اللبنانية. أساتذة علم النفس. إدارة الليسيه الفرنسيةاللبنانية في فردان. رئيس البعثة العلمانية الفرنسية.

اسمه مكتوب بحرف بارز: الدكتور رالف ابراهيم رزق اللّه.

تُرى، كيف مات؟ حادث سيّارة؟ ذبحة قلبية؟

«... ينعون بمزيد من الأسى المأسوف على شبابه

الدكتور رالف ابراهيم رزق اللّه

المنتقل إلى رحمته تعالى السبت ٢٨ تشرين الأوّل».

تذكرت آخر مرّة رأيته فيها: في مدخل مبنى «النهار». أنا أخرج وهو يدخل. وضعت رأسي في الأرض.

في صفحة الحوادث وجدت الخبر التالي: «نَعَتْ أمس الجامعة اللبنانية أستاذ علم النفس في كلّيّة الآداب الدكتور رالف رزق اللّه الذي قضى في حادث غامض في محلّة الروشة».

خرجت من مكتبة «يافث» كالتائه.

الروشة؟

لا افهم شيئاً.

حادث غامض؟

الروشة؟ صخرة الروشة؟

رالف ينتحر؟

هكذا بدأ كلّ شيء.

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

مات السبت. الأحد تُعطّل معظم الصحف في بيروت. كان على الخبر أن ينتظر حتى نهار الاثنين كي ينتشر.

مساء ذلك الأحد اشتدّ عليّ ألم الصُّداع. فلم أتمكّن من النوم إلاّ بُعيْد منتصف اللّيل. وحين غفوت كان نومي سيِّئاً. رأيت نفسي سائراً في الصحراء. كانت الكثبان الرملية تحيط بي. وأخذ الثلج يتساقط، رقعاً بيضاء كبيرة. فانتبهت إلى قدميّ: كنت حافياً. لا حذاء، ولا جوارب.

في الصباح غسلت وجهي بسرعة، وارتديت ثيابي، وغادرت. تسلّقت الدرجات السبع حتى مدخل البناية، ثم خرجت إلى الشارع. هنا كان الجوّ دافئاً.

عبرت الساحة إلى الجهة الأخرى وصعدت في شارع «عبد الله المشنوق» في اتجاه «سيّار الدرك». إلى يميني جدار مرتفع، خلفه كان المركز القديم للأمم المتحدة. أخذت أمرّر يدي عليه وأنا أمشي.

ركبت سيّارة أجرة إلى الجامعة الأميركيّة. هناك جلست على مقعد بين الأشجار وتركت الهواء يدخل إلى رئتيّ. رويداً رويداً هدأ النبض في رأسي.

نزلت إلى الطابق السفلي من مكتبة «يافث» كي أقرأ الصحف. خرجت بعد نصف ساعة. كالتائه.

مشيت في الجامعة. لم أقدر أن أفهم. تعيش ولا تنتبه. كأنّ الذين حولك هم من عالم آخر. وفجأة تكتشف أنّ الأمر ليس كذلك إطلاقاً.

تكتشف ذلك بعد فوات الأوان. فالآن هو حقاً في عالم آخر.

لكنّه، ذات يوم، ذات مرّة، ذات لحظة، كان موجوداً. وكان مثلك. وأنت لم تنتبه.

تعرف جيّداً انّه كان مثلك. فقط لأنّه انتحر.

وما الذي يجعلك متأكّداً إلى هذا الحدّ؟

«حادث غامض في محلّة الروشة».

ربما تعرّض للسرقة هناك، ثمّ للقتل.

لكنّ صخرة الروشة مشهورة بحوادث الانتحار.

لكن...

كنت اقف قرب «بيت ماركواند» الخاص برئيس الجامعة. من هنا أرى الملعب الأخضر الكبير وأرى الكورنيش وأرى البحر.

الهواء يحرّك الأشجار حولي. المكان هادئ. كأنّي لست في بيروت. كأنّي لست في هذا العالم.

أشعلت سيجارة ورميتها أرضاً.

ليلاً وقفت أمام المرآة وقلت لها: «من الآن نسيت».

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

بعد أسبوع من انتحاره، وفي صباح السبت ٤ تشرين الثاني ١٩٩٥، صدر «الملحق» الأدبي التابع لصحيفة «النهار» بغلاف تغطيه لوحة لبيكاسو، وفي الزاوية العليا من اللوحة بورتريه بالأبيض والأسود لرالف رزق اللّه.

رميت «الملحق» تحت السرير. لم أفتحه. قلت لنفسي: «إنّي سأتركه حتّى يتعفّن ثم أرميه خارجاً». صنعت، ليوم طويل من القراءة، إبريقاً كبيراً من الشاي غير الثقيل، ثم فتحت «كتاب اللاطمأنينة».

يدخل ضوء الشمس إلى هنا عبر كوّة تقع في أعلى الجدار المواجه لبوّابة القبو. إنّها كوّة كبيرة جداً، بحيث أنّ الرجل الذي يملك هذه البناية، شرح لي، وببساطة، أنّها نافذة صغيرة قليلاً، حين نزل بي إلى هذا المكان للمرّة الأولى.

كان ذلك خلال صيف ١٩٩٤.

سألته: «إذا كانت نافذة فأين زجاجها؟».

فأجابني: «هكذا أفضل للتهوئة».

إنّه يملك متجراً لبيع الأدوات الكهربائيّة في شارع قريب. كنت قد دخلت إلى المتجر حاملاً قصاصة مزّقتها من «الديار»: «غرفة وحمّام ومطبخ. نؤجّر بسعر زهيد. للمراجعة: محلاّت الريّس

للكهرباء. ساقية الجنزير».

على الفور وضع يده على كتفي وقادني إلى هذه البناية. وقف عند البوّابة الحديديّة وقال لي: «تفضّل».

دخلت قبله وبدأت أصعد الدرج.

- لا، هتف لي، من هنا.

كان هنالك درج آخر يهبط إلى باطن الأرض. ونزل قبلي. بعد الدرجة الخامسة غدت العتمة دامسة. لم تصدر البوّابة صريراً قوياً حين فتحها، في الداخل أخبرني عن النافذة التي بدت لي كوّة.

- اللمبة ليست مئة شمعة، بل مئتان. وحين تُقطع الكهرباء هناك مولّد حديث يدور أوتوماتيكيّاً.

صدّقته لأنّه يملك متجراً: محلاّت الريّس للكهرباء. كما في قصاصة الصحيفة. وكما في اللافتة المكسورة قرب الدكّان.

إلى اليسار مغسلة فوقها مرآة. في الزاوية، قبل المغسلة، بوّابة مفتوحة. الحمّام عبارة عن كرسيّ وحنفيّة قربه. البوّابة تفتح إلى الداخل. أشكّ أنّ هناك شخصاً في العالم يمتلك الشجاعة الكافية للإقفال على نفسه داخل هذا الحمّام. أتساءل لماذا البوّابة؟

- كنّا نستخدم هذا المخزن كملجأ خلال الحرب.

إذن فهو ليس قبواً، بل مخزن.

إلى يميني بوّابة سوداء تبدو كثقب مستطيل وضخم في الجدار المطليّ بالكلس حديثاً.

- إنّها مقفلة بالمسامير، شرح لي، في الداخل أغراض لسكّان من البناية مسافرين إلى أميركا.

قبالتي سرير نحاسيّ عالٍ. فوقه فرشة مطويّة. السرير يبدو قادماً لتوّه من قصر لويس السادس عشر. وقربه كومودينة صغيرة. وبوتاغاز أزرق اللون أصغر من الكومودينة المذكورة.

تحت المغسلة وعاء بلاستيكي أحمر مليء بالصحون المتّسخة.

البلاط أسود، تتوزّعه بقع من الكلس.

- هل أعجبك البيت؟ سألني.

- حسب الإيجار. أجبته.

- مئة وثلاثون دولاراً. ودون اشتراك في مولد البناية الأوتوماتيكيّ، مئة وعشرون دولاراً فقط لا غير.

- سأدفع مئة وثلاثين. قلت له.

- حسناً، قال، وغداً سأرسل العمّال البنغلادشيين كي ينقلوا السرير من هنا.

- ينقلوا السرير؟

- لا تخف، سيتركون لك الفرشة.

قضيت الصيف على الفرشة. عند بدايات الشتاء ابتعت سريراً خشبياً من «جاليري قطّان». إني أسنده إلى الجدار. الكوّة فوقي، على علوّ مترين. عند الصباح يدخل مستطيل الضوء منها ويقع على بوّابة القبو. البوّابة أيضاً مطلية بالكلس كما الجدران. فقط بوّابة الغرفة الموصدة ليست بيضاء.

خلال اللّيل أسمع جلبة خلفها.

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

بعد أسبوع من انتحاره، تمدّدت في كهفي المضاء بلمبة كبيرة ويشعاع دقيق من نور الشمس. وكنت أشرب الشاي، أقرأ يوميات فرناندو بسّوا، وأحاول أن أنسى صداع رأسي.

أعرف الوقت من الأذان الذي يصلني واضحاً من الجامع القريب. جامع خالد بن الوليد. وفي الساعات القليلة التي تسبق الظهيرة واختفاء الشمس فوق سطح البناية أعرف الوقت من مستطيل الضوء الصغير إذ ينتقل من نقطة في أعلى الباب حتى يصل إلى نقطة في أسفله ثم يزحف صوب سريري ويتلاشى قبل أن يصل إلى حافته. على بعد عشرين سنتمتراً تقريباً.

علي، الرجل صاحب البناية ودكّان الكهرباء، قال لي إنّ نصف هذا المخزن فقط غارق في الأرض. وإنعام البنغلادشي الذي كان يقيم هنا قبلي، أخبرني، حين جاء كي يأخذ السرير النحاسيّ مع اثنين من أصدقائه، أنّني سأحبّ هذا المسكن في أيّام الحرّ الشديد، لأنّه محاط بالآبار الارتوازية.

– وماذا عن أيّام الشتاء؟ سألته.

فابتسم. وكان يغادر مع صديقيه، والسرير النحاسي.

بعد أن ذهب تذكرت أني نسيت أن أسأله كيف حصل على السرير.

ولد فرناندو بسّوا في لشبونة في البرتغال عام ١٨٨٨. كان يتيم الأب. سافر مع أمّه وزوجها إلى جنوبي أفريقيا ودرس هناك. أحب الشعر الانكليزيّ، وفاز في مسابقة لكتابة السونيتات. عام ١٩٠٥ عاد إلى لشبونة، حيث عمل مترجماً تجاريّاً في مؤسّسة صغيرة، حتّى موته في عام ١٩٣٥. لم يتزوّج، عاش بلا أصدقاء حقيقيّين. وكان ينشر بعض القصائد في صحف مختلفة مستخدماً أربعة أسماء مستعارة: البرتو كيرو، الفارو دكامبوس، ريكاردو رييس، وبرناردو سوريز.

داوم على كتابة يوميّاته في دفاتر يحتفظ بها داخل صندوق خشبي كبير. وكان يدخّن ثمانين سيجارة يوميّاً، ويهوى تناول الكحول في معظم أوقات النهار. وبعد موته في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٥، بداء قصور الكلى، عثروا في الصندوق الموضوع داخل غرفته على ٢٧,٥٤٣ مخطوطة.

لماذا لا تنسى الـ٥٤٣؟

لقد كتب ٢٧ ألف مخطوطة خلال ثلاثين سنة! ١٩٣٥ - ١٩٠٥= ٣٠ سنة وحيدا في لشبونة. وأيضاً: ١٩٣٥- ١٩٠٥= ٢٧ ألف مخطوطة.

من الـ٢٧ ألف مخطوطة، قام جورجي دي سيرا، خلال عام ١٩٦٠، بنشر مجموعة صغيرة فقط. وبعد سنوات طويلة، خلال عام ١٩٨٢ تحديداً، نُشرت معظم هذه الأوراق ضمن كتاب واحد: «كتاب اللا-دعة» باللغة البرتغاليّة طبعاً. وسرعان ما تُرجم الكتاب إلى معظم اللّغات الأوروبية.

- The Book of Disquiet.

كتاب اللا - دعة. اللا- هدوء. اللا- سلام. اللا- راحة. ذات مرّة كتبت عن هذه اليوميّات في «الملحق»: «كتاب ليالي هذا العالم»؛ مقال في صفحتين كبيرتين. تُرى، هل قرأه رالف آنذاك؟

ما بك يا فتى؟ ألم تقل للمرآة إنك قد نسيت؟

فلماذا إذن تعود إلى تذكّره، وأسبوع واحد لم يمضِ بعد على وعدك؟

لكنّ الحياة هي هكذا.

الوعد اللا- ثابت.

أمد ذراعي تحت السرير، وأُخرج «الملحق». مضى عليه هناك ساعات قليلة فقط، ورغم هذا فإنّ صفحاته قد باتت مشبعة بالرطوبة.

كأنّ الأرض مصنوعة من الفخّار. وكأنّ مياه الآبار الأرتوازية تنشُّ عبر مسامّ الفخّار الرفيعة. وربّما ذات ليلة أستيقظ فأجد نفسي مغطّى بالخزّ.

ولمَ لا؟

ويدخُل، علي الريّس ملك الكهرباء، فيجدني قد تحوّلت إلى فطر عملاق.

على الأقل الفطر لا يعاني الصداع.

تُرى، لماذا؟

ربّما لأنّه لا يملك رأساً.

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

في مكتب «الملحق» كنت لا أراه إلاّ ضاحكاً. لم أكن أقرأ مقالاته. أنا أصلاً بالكاد أقرأ مقالاتي. وذات مرّة قلت هذا الكلام لفتاة فاتهمتني بالنرسيسية. أو النرجسية. آنذاك كنت أقطن في شارع جاندارك.

عبر موسوعة خاصة بالأساطير عند اليونان حاولت أن أفهم المغزى من كلام تلك الفتاة. فمن هو نرسيس؟

كان نرسيس رجلاً جميلاً جداً. أحبّته إلهة فطلبت منه أن ينام معها. رفض ومضى ليمشي في الغابة. هناك نال منه العطش. لأن الإلهة كانت قد رشّت ملحاً على لسانه خلال غفوته. (متى كانت تلك الغفوة، الموسوعة لا تخبرنا) فانحنى فوق بركة ماء، فرأى وجهه. كان الأمر ساحراً. مدّ يده إلى الماء. حاول أن يلمس الوجه لكن دون جدوى. أخيراً عرف وجهه. لكنّه ظلّ غير قادرٍ على امتلاكه وسقط في الماء.

هل سقط خطأً بينما كان يحاول امتلاك صورته ووجهه؟ أم أنّه رمى نفسه في الماء حين أصيب باليأس، وقد أدرك أخيراً أنّه لن يتمكّن أبداً من حيازة وجهه وصورته، ومن الإمساك بنظراته، بملامحه، وبابتسامته الحزينة، بين يديه الاثنتين؟

لا نعلم. وكذلك الموسوعة.

ماذا عن تلك الفتاة؟ هل أذهب وأسألها؟

لكنّي لا أعلم أين هي.

لقد سافرت على أغلب الظن.

ومعها سافرت المكسّرات الصينيّة. وميثولوجيا اليونان.

السبت ٩ كانون الأوّل عام ١٩٩٥، قرأت في «الملحق» ما يلي: «في أربعين صديقنا وزميلنا الراحل رالف رزق اللّه، لم نجد، إحياءً لذكراه، أفضل من العودة إلى آخر ما كتبه وأودعه جهاز الكومبيوتر خاصته ولم يُنشر في حياته. مقالتان لرالف رزق اللّه، الأولى عن ظاهرة النيرفانا والانتحار، والثانية عن بلاغة السكوت، مرفقتان بشهادات أهل وأحبّة وزملاء من أساتذة قسم علم النفس في الجامعة اللبنانيّة» (الصفحة ١٢).

المقالة الأولى أقرأها بسرعة. إنّها غير مكتملة. المقالة الثانية أقرأها أربع مرّات على التوالي:

«... لم تصغِ، أنت الذي كتبت، لأصداء الصوت الذي يدويّ في فراغك.

اجلسِ الآن على كرسيّ، تأمّلْ بقع البلاط في شقّتك الرطبة... وابنِ منها أشكالاً...

ما عليك سوى أن تجلس...

التزمِ الصمت. إيّاك أن تكتب...

إذ إنّ الكتابة، كما صرّحت، لا تنبئ...

قال العرب: البلاغة في الإيجاز

والأصحّ في معتقدي أنّ البلاغة هي الصمت. ألم تقرأ ما جاء في التلمود: «الكلام من فضّة، ولكنّ السكوت من ذهب»...

«وفي الصمت بلاغة»، كما قال باسكال.»

ذهبت إلى المرآة. تحت المرآة مغسلة وتحت المغسلة وعاء أحمر. أهذا هو مطبخي؟ «وزارة الإسكان والشؤون الاجتماعية» أقرّت، خلال عام ١٩٥٧ قانوناً يحمل الرقم ٧١٢٣، يُمنع بموجبه إطلاق صفة «شقّة» على كلّ عقار سكني لا يحتوي مطبخاً.

في القرار ذاته يتمّ تعريف المطبخ بـ«فضاء مستقلّ يحتوي على مجلى وحنفيتين ونافذة خاصة به». القرار صدر في عهد الرئيس كميل شمعون. ومايزال معمولاً به حتى الآن. رسمياً على الأقلّ. فلماذا يقول لي «شقّتك الرطبة» وهي أصلاً ليست شقّة؟ ومن أوحى له أنّني أملك كرسيّاً؟

نظرت إلى المرآة وصرّحت له بهذه الحقائق.

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

خلال شباط ١٩٩٦ قمت بجمع معظم المقالات التي نشرها في «الملحق». الأولى كانت عن دراكولا. والأخيرة عن التعاسة. وبين السبت ٣ تشرين الأوّل ١٩٩٢، والسبت ١٩ أيلول ١٩٩٥، وجدت قرابة الثلاثة عشر مقالاً، أجملها المنشور خلال السنة الأخيرة.

ينتهي مقال دراكولا، الصادر في ٣ تشرين الأوّل ١٩٩٢، على النحو التالي: «كل مخلوق حيّ مدفوع غريزيّاً نحو الموت بصورة أو بأخرى، ذلك لأنّ الموت هو الحالة التي يتخلّص فيها الكائن من التوتّر تماماً، ولأنّه نكوص نهائيّ إلى تلك الحالة الأولى التي سبقت الطفولة والحمل والتي سبقت ظهور الحياة نفسها، حالة النرفانا أو الفناء المطلق.... أو حتّى الخلود.

ذلك أنّ مصاص الدماء حيّ - ميت سمته الرئيسة الالتباس. نحن هنا على مفترق، نقطة التقاء دروب عديدة يتردّد عندها التائه».

أمّا المقال الأخير الذي نشر في ١٩ أيلول ١٩٩٥، أي قبل أربعين يوماً فقط من موت رالف، والذي أعيد نشر الجزء الأخير منه - بعيد موته - في «الملحق» الصادر السبت ٤ تشرين الثاني ١٩٩٥، فيخلص إلى الاستنتاج التالي: «أكثر من مفكّر وكاتب اعتقد أنّ

السعادة تكمن في اكتشاف معنى للحياة... أي في استنتاج قانون يخضع له تسلسل الأحداث الحياتية. وقد أقدم الكاتب الأميركي إرنست همنغواي على الانتحار لا لشيء، إلاّ لأنّ الحياة لم تستجب لمتطلّباته، أي لما كان يتوقّعه منها. كما أنّ المفكّرين الوجوديّين (نذكر منهم كييركيغارد، دوستويفسكي، وكامو) قد عكفوا على مشكلة النتائج المترتبة على غياب المعنى. الباحث عن معنى للوجود أو للحياة يعيد النظر في كلّ شيء، ولا يعيد النظر في بحثه العبثيّ عن المعنى. في البحث عن المعنى تكمن المأساة... والأسى.

ندعو الساعين إلى اكتشاف المعنى، والمقبلين تالياً على الانتحار، إلى التمثّل بموقف الملك الذي قرأ في «أليس في بلاد العجائب» قصيدة الأرنب الأبيض الخالية من المعاني، فاستنتج بابتهاج: «إذا كانت القصيدة لا تتضمّن أيّ معنى، فهذا يخلّصنا من هموم كثيرة، إذ لا نعود مضطرّين للبحث عن معنى».

مات رالف قبل أن أقرأ له مقالة واحدة. لهذا ربّما، نظرت إلى الأرض، حين التقيته لآخر مرّة في مدخل «النهار».

لو كنت أعلم أنّه يحب «أليس في بلاد العجائب»!

لو!

بالموت نتخلّص من التوتّر، قال.

بالتحوّل إلى فطر عملاق أيضاً، قلت.

لا تكتب، الكتابة لا تنبئ، قال.

الكتابة صديقتي وبحري، قلت.

إلى حين، إلى حين، قال.

أعطيت ظهري للمرآة وعدت إلى السرير وكي لا أقطع الجسور بيننا غنّيت من «أليس في بلاد العجائب» مترنماً:

*Humpty Dumpty sat on a wall*
*Humpty Dumpty had a great Fall*
*All the King's horses and all the King's men*
*Couldn't put Humpty Dumpty on his place again*

ملأت الطنجرة ماء، وضعت فيها أربعة رؤوس من البطاطا، أشعلت البوتاغاز.

بعشرين دولاراً فقط أقدر أن أحصل على طعام يكفيني شهراً كاملاً:

* دولار ونصف، أجرة السيارة التي أركبها إلى سوق الخضَر في بئر حسن، والأخرى التي أعُودُ بها.

* من سبعة إلى عشرة دولارات، ثمن صندوق البطاطا في سوق الخضَر المذكور أعلاه. السعر يراوح حسب الفصول والمواسم. الصندوق يحتوي على عشرين كيلو بطاطا تكفيني لشهر بأكمله.

* تبقى تسعة دولارات، كمعدّل. أحتاج خمسة أكياس خبز، هذه ثلاثة دولارات ونصف. وخيار أو خسّ أو بصل، أبتاع الأرخص، حسب المواسم، طارت ثلاثة دولارات أخرى.

بما تبقى أرفّه نفسي.

فأبتاع بعض الكماليّات.

يقول حكيم هنديّ: «الغنيّ شخص يملك كفايته».

بالإضافة إلى العشرين دولاراً المذكورة، أدفع مئة وثلاثين دولاراً لصاحب البناية.

ولأني أكتب المقالات في صحيفتين معاً، ملحق النهار، والحياة، فإنّني أملك كفايتي. فمدخولي الشهري يتجاوز المئتي دولاراً. وقبل سنتين، حين كنت ماأزال أقطن في منطقة الحمرا، كان مدخولي يقارب الأربعمئة دولار.

ثم قرّرت أن لا أكتب للصحف كثيراً. تماماً كما تقرّر عاهرة مدلّلة، ذات يوم، أنها من الآن وصاعداً لن تستقبل من الرِّجال إلاّ أوسمهم.

- الغنيّ شخص يملك كفايته، يقول الحكيم الهنديّ.

- بالضبط، كفايته! أجيب قائلاً.

- ولكن ما هي هذه الـ«كفايته»؟ أسأله متابعاً.

فيجيبني:

- إنّها، بالتأكيد، ما يملكه الشخص كي يكون غنيّاً.

بهذه السلسلة من الأفكار المتعلّقة بالحكمة الهندية أبعدت عن ذهني صورة الرجل القابع في المرآة.

رالف.

إلى حين.

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

كنت أراه دائماً في معطف رماديّ – أزرق. ومن كتفه تتدلّى حقيبة. إنّه أستاذ في الجامعة، أقول. ثم أجيب عن أسئلته بأقلّ عدد ممكن من الكلمات.

هل كان يعاني الصداع؟

بسّوا: «أرغب أن أموت بشدّة فأنا أعاني الصداع».

ولماذا لم يعد قادراً على احتمال العالم؟

بسّوا: «رأسي يؤلمني، والكون بأسره يؤلمني أيضاً».

أضع كتاب اللا– دعة، كتاب التوتّر، على سطح الكومودينة. أغادر القبو كي أمشي في الشوارع لبعض الوقت. إني أمشي، قال كييركيغارد. لكن من أنت؟ سألوه. أنا الشخص الذي يمشي، أجابهم.

إني أمشي. الساق اليمنى ثم اليسرى. حركة ثم أخرى. دون وعي، دون انتباه، كأن تعيش. إني أمشي. الهواء يدخل عبر أنفي وفمي، في رئتيّ تمتصه الأوعية الدمويّة الكثيرة. الأوكسيجين ينتقل

عبرها إلى قلبي ودماغي. ثاني أوكسيد الكاربون يُفرز بعيداً كي أزفره خارجاً. جسدي يتوازن. العضلات فجأة تحقّق ذاتها. كصوفيّ يقذفُ اللّه نوراً في صدره. عندما أمشي أحسّ بكلّ عضلة في جسدي كأنّها جسدي كلّه. وأحسّ كلّ عضلة تشاركني الإحساس ذاته. الهواء على بشرتي. دفء الشمس. الروائح. قشرة الأرض تحت قدمي. والضوء. أمشي وسط كلّ هذا، بصحبة كلّ هذا. يرافقني رأسي. والصداع.

إني من مواليد عام ١٩٧٢.

لكنّي أملك فوق كتفي رأساً عجوزاً.

وأعتقد أنّني قد تناولت، خلال السنوات العشر الماضية، من حبوب الأسبيرين، كميّةً كافيةً لقتل حوت أزرق يتّسع جوفه لأطنان من المياه.

في عدد السبت ٦ آب ١٩٩٤، أسفل الصفحة رقم ١١ من «الملحق»، كتب رالف: «تدرك فجأة ذات يوم، هكذا، بكلّ بساطة، ودون إنذار – أنك قد بلغت الأربعين (...) بعد اكتشافي لموقعي الجديد، توالت الاكتشافات، وتراكمت المعارف، وتغيّر المشهد.

اكتشفت مثلاً أنّ على كلّ امرئ تجاوز الأربعين أن يجري فحوصاً مخبرية للتأكد من نسبة الكوليسترول والسكّر... إلخ في الدم. علمت أيضاً أن تزايد نسبة الكوليسترول في الدم يؤدّي في النهاية إلى انسداد شريان من الشرايين المغذّية لعضلة القلب ممّا قد يسبّب الذبحة القلبيّة، فالموت. إلاّ أنّه يمكن لسوء الحظ تدارك ذلك وتأجيل الموت بإجراء عمليّة قلب مفتوح يستبدل فيها الشريان المسدود – أو الشرايين المسدودة – بشريان من الساق. وفي لبنان يستبدل فعلاً الشريان المسدود بشريان من ساق صاحب الشريان المسدود. أما في أميركا، فيفضّل الأطباء استبدال أحد الشرايين

المسدودة المغذّية لعضلة القلب بشريان خنزير...

هذا على صعيد المعارف... أمّا بالنسبة إلى المشهد، فقد أضحى باهتاً بعد أن أدركت فجأة أنّ أبناء جيلي لفظتهم الحياة على شاطئ المدينة... على كورنيش المنارة. أصادفهم مروبصين فجر كل يوم بين أرتال اللا - ميتين، يمارسون، على ما أعتقد ويعتقدون، رياضة الجري... تذكّروا أنّ للإنسان بدناً يترهّل... أدركوا فجأة سمك اللّحم الذي يشدّ إلى الأرض وثقل الكائن الذي لا يُحتمل.

أحدهم وقع وهو يجري سعياً لتخفيف وزنه... فتهشّم وجهه.

اعتبر أن الأمر صدفة.

اعتقد انّه تعثّر».

في الزاوية، تحت مقالته، مكتوب: أستاذ مادة علم النفس في الجامعة اللبنانية. (٤٣ عاماً).

في الصورة يرتدي تي -شيرت قطنية زرقاء. كتلك التي يرتديها العدّاؤون. شعره قصير، يَخِطهُ الشيب. بشرته سمراء. عيناه كبيرتان. شارباه كثيفان. جذّاب الملامح. نظرته تائهة.

حين قرأت نشرة نعيه، عرفت أنّ لديه ثلاثة أولاد. صبي وبنتان. لم أتخيّله أبداً كأب. لماذا؟

عدت إلى المقال، قرأت عنوانه: «ولدتك أمك منذ أكثر من أربعين عاماً».

قلت لنفسي: الذي يحذف بهذه السهولة ثلاث سنوات من عمره، ألا يقدر بالسهولة ذاتها أن يحذف عمره كلّه؟

إنّه في الثالثة والأربعين كما تقول الملاحظة في الأسفل، أليس كذلك؟ فأين أخفى الوقت؟

- هذا حكي بلاهة، أقول على صوت عالٍ.

في الأمسيّات، حين أتكلّم على هذا النحو يتكرّر الصدى بين

الجدران. والصدى الأقوى يأتي من جهة الباب الأسود. جهة الغرفة الموصدة.

لأنّ هناك فراغاً خلف ذلك الباب.

وبين حين وآخر أسمع الأصوات.

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

آخر مقال نشره قبل موته كان بعنوان: «مدخل إلى التعاسة». ظهر في «الملحق» قبل أربعين يوماً من قفزته الأخيرة. ولم أقرأه آنذاك. بل بعد موته بأسبوع.

المقال يقع في صفحتين كبيرتين. ويطرح سؤالاً محدّداً: هل يمكن للمرء أن ينجح في تحقيق سعادته؟ والجواب يكون بالنفي. فالطريق إلى السعادة لا يصل بنا إلاّ إلى التعاسة.

لماذا؟

كنّا صغاراً. علّمونا في المدرسة أن «مَنْ جَدّ وَجَد»، وأنّ «من طلب العلى سهر الليالي». يقول رالف إنه جدّ فلم يجد، وسهر فلم يصل إلى العلى. وها هو قد أضحى راشداً وربّ عائلة.

«عاد إلى رشده، وأدرك فجأة أنّه جدّ دون أن يجد شيئاً»، يكتب رالف. ثم يتابع: «والأصحّ أنّه وجد الضدّ... فشكّ بطفولته وبعقله الصبياني...».

تفعل الأشياء لتصل إلى نتيجة ما فتكتشف فجأة أنك وصلت إلى عكسها. «تماماً كما يحصل في بلدان العجائب التي زارتها الفتاة أليس في رواية لويس كارول... بلد العجائب هو العالم الموجود في «الجنب الآخر من المرآة» De l'autre côté du miroir

(عنوان آخر لقصّة من قصص لويس كارول). عالم تزوره صباح كل يوم وأنت تنظّف أسنانك بأفضل فرشاة صُمّمت، كما تقول الدعاية أيضاً، لتنظيف الأسنان. مشكلتك أنّك لم تكترث لوجود «الجنب الآخر من المرآة». تنظّف أسنانك بيدك اليمنى أمّا في المرآة، فإنّ اليد اليسرى هي التي تنظّف. الأثر على المرآة معاكس تماماً لما تفعله... علماً أنّك لم تشك لحظة في أنّك تنظّف أسنانك بيدك اليمنى... أنت لم تشك لحظة في يدك اليمنى... كما لم تشك في الفرشاة التي تنظّف الأسنان، ولا في المرآة التي تعكس ما تفعله. تذكّرت كلّ الأشياء دون استثناء ونسيت – أو تناسيت – أنّك أمام مرآة تعكس فعلاً ما تقوم به. ثم إنّك لم تفكّر بما فيه الكفاية في «الانعكاس» الذي يمثّل الخاصة الأساسية للمرآة. المرآة تعكس الأشياء، أي أنّها، في آن واحد، تعبّر عن الواقع، وتقلب أثره إلى الضدّ ما إن يصل إلى سطحها. لم تنسَ، أنت الذي تقف صباح كلّ يوم أمام المرآة، أن تقوم بكلّ ما يجب أن تقوم به، وغاب عن بالك أنّ كلّ ما تقوم به ينقلب إلى ضدّه «في الجنب الآخر...».

إنّه يترجمها إلى الفرنسية: De l'autre côté du miroir أما أنا فأترجمها إلى الإنكليزية: Through the looking - glass.

أبتسم أمام المرآة، فلا تنقلب ابتسامتي إلى ضدّها. هذا ما تعلّمنا إيّاه المرآة.

لا تتحرّك، فقط ابتسمْ.

كالمعتوه.

إجلسْ كهامبتي دامبتي على حافة حائط والعبْ بالكلمات. فقط العبْ بالكلمات. ولا تتحرّكْ.

واستمعْ إلى الجلبة القادمة من الغرفة الأخرى.

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

مات في تشرين الأوّل ١٩٩٥ منتحراً. ومع حلول ربيع عام ١٩٩٦ بات يزور مناماتي كلّ ليلة. أراه جالساً على كرسيّ، أو ماشياً في شارع.

مرّة واحدة رأيته يهوي نحو البحر.

منذ سنوات، يبقى البحر، قرب شاطئ بيروت، هادئاً خلال التشارين. السنة الماضية لم تكن شاذّة. كتاب الدكتور يوسف منيمنة عن أحوال الطقس في لبنان خلال القرن العشرين يخبرنا أنّ البحر لم يكن مسالماً في العقود الماضية. في العشرينات مثلاً، وخلال عام ١٩٢٤ تحديداً، ارتفع البحر عند بداية شهر أيلول، بتأثير تيّارات تحتيّة، فتسلّق الصخور وغمر منطقة مينا الحصن وجزءاً من عين المريسة.

في المنام أرى رالف يهوي نحو صفحة مياه رائقة كمرآة. ليس هناك صخور. فقط مياه. ينسلّ عبرها كالطيف.

مثل طفل يلعب بالماء: خيط الماء ينزل من الحنفيّة فتقطع الإصبع الصغيرة خيط الماء لجزء صغير من الثانية. ثم يعود الخيط إلى حاله السابقة، كأنّه لم ينقطع.

كذلك البحر. ينسلّ رالف إلى داخله ويختفي. فتعود صفحة المياه رائقة وخالية من التجعيدات. كأنّها قطعة من القماش المشدود. وكأنّ شيئاً لم يخترقها قبل لحظة.

في هذا المنام الموت غير موجود. حتى كفكرة.

كأنّ رالف لا يموت.

كأنّه فقط يمرق، كالطيف، عبر لوح من زجاج.

لويس كارول هو اسم مستعار للكاهن تشارلز دودغسون. الكاهن المذكور كان أيضاً مؤلّفاً لكتب المنطق والرياضيّات. في عام ١٨٦٥، وكان من عمر المسيح حين صُلب، نشر «أليس في بلاد العجائب». هذا الكتاب الموجّه إلى الأطفال سحر الكبار أيضاً. وانكلترا كلّها طالبت لويس كارول، أو تشارلز دودغسون، بجزء ثان. في عام ١٨٧٢، رضخ. كان قد بلغ الأربعين من عمره، وأصدر كتاباً ساحراً آخر: Through the looking - glass أليس كانت طفلة يعرفها، ومنها استوحى شخصيّة بطلته. كان مولعاً بتصوير الأطفال فوتوغرافياً. ولم يتزوّج أبداً.

في كتابه الثاني هذا نجد أليس جالسة مع هرّتها، داخل الغرفة حيث المدفأة والمرآة المثبتة فوق المدفأة. هناك صورة رسمها لويس كارول بنفسه تظهر فيها الحجارة القرميدية للمدفأة ملوّنةً بالبرتقالي لا بالأحمر كما يُفترض. أو حتى النبيذيّ.

حين تنظر أليس في المرآة ترى وجهها، وانعكاس الباب الذي وراءها. وحين يكون الباب موارباً ترى أيضاً انعكاس الجزء الظاهر من الممرّ. هذا الممرّ يؤدّي إلى غرف البيت الأخرى. أليس تعرف هذا

لأنّها تعرف جميع غرف البيت وجميع زواياه.

لكنّها تتساءل: إلى أين يؤدّي الممرّ المرئيّ في المرآة؟ إلى أين يؤدّي ممرّ المرآة؟

فتقول لهرّتها: تعالي يا هرّتي نتخيّل أن بمقدورنا الدخول عبر المرآة. لنتخيّل أنّ الزجاج رقيق وناعم كالهلام بحيث نمرق خلاله. ألا ترين؟ إنّه يتحوّل إلى نوع من الضباب، في هذه اللحظة، وسيكون من السهل علينا عبوره.

أليس لم تعرف كيف، لكنّها فجأة وجدت نفسها على سطح المدفأة. وزجاج المرآة كان الآن يذوب متلاشياً مثل ضباب فضيّ متألّق. قفزت أليس إلى الغرفة التي في داخل المرآة.

كان ذلك في كتاب صدر للمرّة الأولى عام ١٨٧٢.

وبعد مئة وثلاث وعشرين سنة تكرّر الأمر. لكن ليس في كتاب. وليس مع النهاية ذاتها.

في الكتاب الصادر عام ١٨٧٢، تعود أليس في نهاية الرحلة إلى الغرفة التي انطلقت منها. غرفة المدفأة والمرآة. تفعل ذلك بسهولة: فقط تفتح عينيها. فيتلاشى عالم العجائب وينتهي المنام.

أليس رجعت لأنّها فتحت عينيها.

رالف لم يرجع.

تحطّمت عظام ساقيه فوق الصخور، وأصيب سقف جمجمته بكسر، فقتلته الصدمة الدماغيّة على الفور، وكان وجهه لم يلمس المياه بعد. وحين وجدوه، بعد ثلاث ساعات، كانت عيناه مغمضتين.

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر حزيران ١٩٩٦ قرّرت أن أبحث عنه لعلّني أنسى الصداع.

جميع الأدوية لا نفع منها. الأسبيرين تفاهة. البنادول للأطفال. الأدفيل، وهو دواء غير متوفّر في الأسواق اللبنانية لكنّه يباع كالفجل في أميركا، منحني بعض الساعات من غياب الألم. في البداية فقط، ثم Zelig: صفر مطلق.

سألتني صديقتي هل تطلب من أختها أن ترسل لي علبة دواء أخرى؟

– لا ضرورة، أجبتها، إنّي مشغول عن رأسي ببطني.

ذات مرّة قال لي أحد الأطبّاء إنني سأصاب بالقرحة قبل أن أبلغ الخامسة والعشرين من عمري. لم يصدّق أنني أحياناً أتناول عشرين حبّة أسبيرين خلال ثلاثين ساعة فقط. مستحيل، قال لي.

لكن ذلك حديث قديم. فمنذ أكثر من سنة، وأنا أحارب الصداع بالمشي، وبليتر من الماء أتجرّعه صباحاً كلّما استطعت ذلك.

في بدايات حزيران اشتدّ الحرّ. أدّى هذا إلى تدفّق الدم في

شرايين جبهتي كسيل من الوحول. وضعت أصابعي على صدغي. عقد تليها عقد. كأنّ جبهتي حبل في يد بحار يموت ضجراً: عقدة تليها العقدة. ثم قبضة عملاقة تمسك برأسي من قبّته وتسحقه.

في الحمرا، جرس الكنيسة أسمعه كأنّه يدوي داخل رأسي. وأحسّ الطابة النحاسيّة الصفراء تخبط جوانب جمجمتي من الداخل وتصدّعها. فقط في الخيال تصدّعها.

تحتاج جمجمتي إلى كيلو من الموادّ الشديدة الانفجار كي تتصدّع. كم مرّة حلمت بانفجار كهذا؟

خلال أيّام الدراسة الجامعيّة كنت أداوم على التبرّع بالدم في المستشفى التابع للجامعة. من أجلي وحسب. كنت، إذ أرى دمي يتدفّق بعيداً عنّي عبر الأنبوب الشفّاف، أتخيّل شرايين جبهتي تخلو من العقد فجأة، كأنّ مرضي يذهب مع دمي.

كأن دمي مرضي.

لم أتوقف عن التبرّع بالدم بسبب الوهن الذي أصاب جسمي، بل لأنّني خلال تلك الفترة عثرت في المكتبة صدْفةً على كتاب يضمّ رسائل كافكا. ضمن هذه الرسائل قرأت وصفاً مرعباً للسلّ الذي أصاب رئتي كافكا وقتله.

كان يصف الدم الذي يتجمّع في حنجرته ثم يخرج في كتل من فمه، وكيف يقتله الرعب لفكرة أن هذا النزيف لن يتوقّف.

فجأة أحببت دمي.

ولم يعد الصداع بشعاً.

إلى حين.

ثم استعاد الصداع كلّ بشاعته.

أمّا قصّة التبرّع بالدم فتناسيتها نهائيّاً.

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

خلال حزيران ١٩٩٦، وكان قد مضى على موته قرابة الثمانية أشهر، قرّرت أن أبدأ بالبحث عنه. هكذا، في لحظة ما، رأيتني أنظر إلى انعكاس وجهي في المرآة، وأتجاهل الفضاء الأسود الذي يظهر وراء أذنيّ، وأقول إنّني سأبحث عنه.

الفضاء الأسود كان انعكاس البوّابة السوداء في المرآة. البوّابة التي تشبه ثقباً في بياض غرفتي. بوّابة الغرفة الموصدة.

سألت: أين تبحث عن رجل ميت؟

أجبت: عند أهله. عند عائلته. عند معارفه.

سألت: وأين أيضاً؟

أجبت: في صوره.

– وهل تعرف مكاناً آخر تجده فيه؟

– أعرف، كتاباته.

من الحديث الدائم مع مرآتي أعرف أنّ التواصل بالكلام قد لا يكون مستحيلاً. بل وأنّه أحياناً يدفعك إلى التفكير في أشياء لم تفكّر فيها من قبل.

أشياء، وأماكن.

أعرف مكاناً قد أجد فيه رالف.

أين؟

على الروشة.

وسط البحر.

خرج البحث من القبو. فخرجت معه.

كانت الشمس تغطّي الشوارع، كأنّها تغمرها بالمياه الساخنة. فكّرت في العودة إلى تحت الأرض. قلت إنّ رأسي سينفجر في هذا الحرّ. ولن أتحمّل. فخرج صوت من داخلي: دعه ينفجر، ولماذا يجب أن تتحمّله دائماً؟

فمشيت تحت الشمس.

وكنت أعلم أنني أدخل في متاهة.

فحين تنصاع لأمر صوت يخرج من داخلك، ولا تتبيّن مركزه المحدّد، فإنّك قد بدأت بالتخلّي عن نفسك.

ولأنّك قد بدأت للتوّ، فأنت لا تملك أيّة فكرة عن النهاية التي تنتظرك في آخر المتاهة - إذا كان لهذه المتاهة آخر مرئيّ.

إنّ هذا يشبه شيئاً أعرفه جيّداً. شيئاً كنت أعرفه جيّداً. قبل زمن بعيد. في أيّام المدرسة ربّما. وقبل أن تلوّثني الكتب فتحوّلني إلى ذئبٍ كارهٍ للبشر.

إنّ هذا يشبه الحياة.

# الجزء الثاني

«هل نقفز؟»، سألني.


Twitter: @ketab_n

في جيبي قصاصة صحيفة. «شارع البطريركيّة. بناية الخوجا». إنّها من خبر النعي الذي نُشر في «النهار» قبل ثمانية أشهر. الجو حارّ. ربّما لأنّني أمشي منذ ساعة. أنظر إلى ساعتي. الساعة تقارب الثامنة. مساء الثلاثاء ١٨ حزيران ١٩٩٦.

أسأل المارّة عن بناية الخوجا.

الحي هادئ. مدخل البناية صامت. المصعد معطّل. أتسلّق الدرج العريض حتى الطابق الأوّل. بناية مليئة بالفضاء. صحن الدرج يشبه ملعباً مسقوفاً. أرى ضوءاً يتسلّل من بوّابة المصعد النازل إلى الطابق الأرضيّ. إذن، ليس معطّلاً.

أطرق الباب الذي يواجهني. يفتحه رجل عجوز. أتكلّم، أسأل عن بيت رزق اللّه. إنّه لا يسمعني. هل هو أطرش؟ أخيراً يبتسم لي، ويردّ على سؤالي: باب رزق اللّه هو الباب الآخر، الباب الذي في نهاية الممرّ.

هل تكلّم، هل أخبرني ذلك في كلمات، أم أنّه أشار إليّ بالإيماءات؟ لا أذكر. وتابع الابتسام. وشكرته. ثم أغلق الباب.

توجّهت نحو الباب الذي أشار إليه. مرّة أخرى يتسلّل الضوء من داخل المصعد ويصنع مستطيلاً على البلاط وعلى الجدار المواجه. إنّه يصعد إلى الطوابق العليا ببطء. هناك، على الأقلّ، ثلاثة أشخاص داخله.

أقرع الجرس. فيُفتح لي. كما قال المسيح. طبعاً لم يذكر الجرس. أعرف هذا.

أرى فتاة شقراء لا تتجاوز الثالثة عشرة. قربها امرأة عجوز قصيرة تضع نظّارات. إنّها تشبه جدّتي. تدخلانني إلى صالون واسع. السجّاد المفروش على الأرض قديم. هناك مدفأة حجرية كبيرة إلى يميني. لا مرآة فوقها. أجلس على الكنبة الطويلة تاركاً النافذة وباب الشرفة خلفي. أصبحت المدفأة إلى يساري.

عن يميني باب جرّار نصف مفتوح يفضي إلى غرفة القعود. أرى أولاداً ورجلاً عجوزاً أبيض الشعر. إنّهم يشاهدون التلفزيون. لا أراه، لكنّي أسمع صوته. أتجاهل نظراتهم. صالون وغرفة سفرة. لسبب ما تحوّلت غرفة السفرة إلى غرفة القعود.

تدخل. إنّها ترتدي قميصاً أسود وتنّورة سوداء ومشّاية سوداء من النوع الطبّيّ: Scholl، كتلك التي تُباع في الصيدليّات. إنّها نحيلة. شعرها أسود مقصوص حتّى الكتفين.

أخبرتها أنني أكتب رواية، وأنّ رالف إحدى الشخصيات فيها. قلت إنّني حاولت الاتّصال بها هاتفياً، لكن الرقم الذي كنت أطلبه مراراً وتكراراً ظلّ عاجزاً عن وصلي بسنترال هذا الحيّ. «تشابك في الخطوط أو الأرقام»، قلت لها، «وكلّما رُفعت السمّاعة في الجانب الآخر سمعتُ صوت امرأة يقول لي: عيني، النمرة غلط».

ابتسمت قليلاً: صحيح. هذا يحصل دائماً. واليوم السنترال معطّل. إنّها مشكلة.

قلت: حصلت على رقم هاتفكم من «الملحق». وعلى العنوان أيضاً.

– كيف أقدر أن أخدمك؟ سألتني.

– أريد بعض الصور الفوتوغرافية.

قالت إنها ستجمع لي بعض الصور من الألبومات. طلبت منها أيضاً نسخة من تقرير الطبيب الشرعي.

- حسناً، قالت، سأجهّزها لك خلال عطلة الأسبوع.

بعد فترة صمت سألتني هل كنت أعرفه جيّداً.

- إلى حدٍّ ما، أجبتها، كنت أراه في «الملحق» أحياناً.

هناك ماء في عينيها.

سألتني هل لدي فرضيّة ما، أو نظريّة محدّدة، أبني عليها روايتي.

أخبرتها أنني لا أبحث عن أسرار، وأنّني لا أعتقد أنّ النّاس ينتحرون لسبب معيّن بالذات.

وافقتني الرأي.

- حتى الآن لا نفهم لماذا فعل ذلك، قالت لي.

- كأنّني لم أفهمه طوال عشرين سنة، تابعت قائلةً.

حسناً، هذا يعني أنّني لم أكذب حين أجبتها أنّني أعرفه إلى حدٍّ ما.

قالت لي: أهله أشعروه دائماً بالذنب. منذ تزوّجني. كأنّه أحبّني عليهم، كأنّه تزوّجني عليهم، كأنّه تركهم.

قالت أيضاً: كان يمرّن جسمه ويعتني به دائماً. كيف رمى به فوق الصخور، كيف شوّهه؟

- «وقال لابنتنا الكبيرة سمر إن لدى كلّ إنسان سراً لا يقوله لأحد. وأخبرني أنّه يرى نفسه في المنام قافزاً عن صخرة الروشة».

بين حين وأخر تقوم لتجلب محرمة من العلبة الموضوعة على الطاولة القريبة من المدفأة. فوق الطاولة شرشف أبيض تزينه التخاريم. ألاحظ أنّ هناك لوحات زيتية معلّقة على الجدران.

في مرّة أخرى سبقتها إلى النهوض وتناولت محرمتين من داخل العلبة. أعطيتها واحدة وطويّت الثانية ثم وضعتها على حافة الطاولة الصغيرة التي أمامها.

تعتذر لي لأنّها تبكي. فأعتذر لها لأنني جئت في وقت متأخّر من النهار، ودون اتِّصال هاتفيّ مسبق. ماذا أقول؟ ماذا أقدر أن أقول غير هذا؟

- أنا أيضاً كان يعاملني كأنّني ابنته، قالت.

في جيب بنطلوني علبة دخان. أفتّش بنظرة عن منفضة، فلا أجد واحدة. أقرّر أن أتناسى الأمر.

قالت إنّها قرأت لي شيئاً ذات مرّة، وإنها تعرف اسمي. لكنّها غير قادرة على التذكّر بوضوح.

أخبرتها أنّني في ما مضى أهديت إلى رالف رواية لي عنوانها«شاي أسود».

- صحيح، صحيح، الآن تذكرت.

(حاولت أن أتذكّر الإهداء الذي كتبته له، لم أقدر أن أتذكّر. وتساءلت هل أطلب منها أن تريني مكتبته).

أجابت، حين سألتها هل فكروا في جمع مقالات رالف في كتاب، أن منى ف. وهي أستاذة في الجامعة اللبنانية، كانت على اتِّصال بالياس خوري، رئيس تحرير «الملحق»، وإنّها، أي منى ف.، كانت تخطِّط لإصدار كتاب يضم مقالات لرالف، وأنّ دار «النهار» كانت تريد نشره.

- وماذا حصل؟ سألتها.

- لا أدري، أجابتني، وأنا مشغولة بالأولاد والمدارس.

حسناً، قلت لنفسي، ها أنا أخوض حديثاً اجتماعيّاً طبيعيّاً، كأيّ شخص طبيعيّ.

قالت: في الآونة الأخيرة كان متعباً. لكنّنا لم نحسب أبداً أنّه سيفعل ذلك. أبداً.

قالت إنّها هي، أستاذة العلوم السكّانيّة في الجامعة اللبنانيّة، تفهم بالأرقام أكثر ممّا تفهم بالكلمات. وإنّها ليست عاطفيّة بينما هو كان بحراً من العاطفة. وشهقت. ثم تناولت المحرمة التي طويتها لها.

تعتذر عن البكاء، أعتذر عن مجيئي في وقت متأخّر. أحياناً أدهش نفسي بقدرتي على حسن التصرّف.

فجأة، تذكّرتُ السجائر.

قالت: لا أحبّ البكاء في حضور الأولاد. ابني مايزال مصدوماً حتّى الآن. البنات يفهمن. كنّ يعرفن. قلنا لهم إنّه كان مريضاً. ليت الصحف لم تكتب أنّه انتحر.

وقالت: ابراهيم (تقصد ابنها) مايزال حتى الآن يرفض الكلام في الموضوع. عندما حصلت الحادثة بكى وقال إنّ والده تركه وذهب لأنّه لا يحبّنا ولا يحبّه.

بين حين وآخر يطلّ رأس البنت الكبرى من الباب الجرّار. إنّها سمراء كأمّها. وشعرها أسود قصير. أعرف أنّها في صفّ البكالوريا. تدعى سمر.

أكثر من مرّة أخبرهم أنّه لن يبقى طويلاً بينهم. وأنّه لم يعد يقدر.

سألتها هل أتعبه كثيراً مرض والديه خلال السنة الفائتة.

سألتها هذا لأني كنت قد قرأت له نصّاً بعنوان «الفراولة الأخيرة» (الملحق، السبت ١٥ نيسان ١٩٩٥) يتحدّث فيه عن وقوفه أمام سريري والديه المريضين، ومراقبته لهما وهما يتخبّطان في العجز والخوف من كلّ شيء: البرد، الأصوات، العتمة...

ذكرت لها النصّ المذكور دون عنوانه. وتذكّرته. وأخبرتني أنّه لم يكن يتحدّث عن أبيه بل عن نفسه.

قلت لنفسي: كان يتحدّث عن الاثنين معاً. الابن والأب.

قالت لي: كان يحب والده أكثر من أمّه. يحبّه كثيراً.

وقالت: كان دائماً يشرد. وحين أسأله هل فهم ما قلته، وهل كان يستمع إليّ، ينتبه من شروده فجأة ثم يكرّر كلماتي جميعها كلمةً كلمةً كي يثبت لي أنّه لم يكن شارداً. كان دائماً كثير الشرود.

- «لماذا أنت كئيب؟» تسأله. كانت.

صوت التلفزيون يرتفع ثم ينخفض. إنّهم يشاهدون فيلماً مكسيكياً مدبلجاً إلى العربية.

استدركت قائلةً إنّه لم يكن شخصاً كئيباً. بل كثير المرح عموماً. أضافت أنّه كان متطرّفاً دائماً في مزاجه. ذات لحظة تراه حزيناً. وفي اللحظة التالية يضحك. ولم يكن كئيباً. وكان يجعل الجميع يضحكون.

قلت لنفسي: وأنا أيضاً.

وتذكرت قصّة الصوص والبطّة.

بيضتان في الحقل الأخضر. كبيرة وصغيرة. أوّلاً تتشقّق قشرة الكبيرة وتخرج منها بطّة. بعدها تتشقّق الصغيرة ويخرج منها صوص.

فرخ بطّة وكتكوت.

قالت البطة: ها أنا قد خرجت من البيضة.

قال الصوص: وأنا أيضاً.

قفزت البطّة وركضت بين الأعشاب. لحق بها الصوص.

قالت البطّة: إني أركض.

قال الصوص: وأنا أيضاً.

مضت البطّة حتى ضفّة النهر، والصوص يتبعها.

قالت البطّة: سأنزل لأسبح.

قال الصوص: وأنا أيضاً.

قفزت البطّة إلى النهر، فعامت لأنّها بطّة. قفز الصوص خلفها، فأخذ يغرق، لأنّه صوص.

قالت البطة: إني أعوم على وجه الماء.

صرخ الصوص: أمّا أنا فلا! أما أنا فلا!

سألتُ حلا عن عنوان أهل رالف.

فدلّتني: الأشرفية، السيوفي، قرب المحطّة، بناية في مدخل زقاق إلى اليسار، الطابق السابع.

أعرف المحطّة لأنّني كنت أقطن في منطقة السيوفي قبل ثلاث سنوات.

نصحتني أن أذهب إليهم في الصباح الباكر أو عند المساء.

- سأذهب صباحاً، قلت لنفسي.

المصعد مشغول. نزلت على الدرج.

في الخارج كانت الشوارع مقفرة. وقفت وسط ساحة

البطريركيّة وتأمّلت الهدوء الذي يشبه الموت. السيّارات المركونة في الموقف القريب. أضواء أعمدة الكهرباء. البيت المهدّم والمحاط بدغل من الأشجار. (إنّه أعلى من الساحة. يربض على هضبة صغيرة). ليل وضوء برتقاليّ وسكينة بلا نهاية.

عبرت سيّارة.

هناك امرأة تسهر أمام بيت قديم. جدرانه صفراء. مليئة بالثقوب. شظايا قديمة ربما. كما البيت. عند مدخل الموقف المسوّر يجلس رجل. على الأرض، قرب قدميه، يتمدّد كلب أبيض. أضواء الأعمدة تنعكس على وبر الكلب، وتصنع خطوطاً صفراء ونقاطاً تشبه الغبار حوله وحول قدمي الرجل.

لا ينتبهان إلى حضوري لأنّهما نائمان. خلفي المدرسة الجديدة. تفرّجت على اللوح الرخاميّ المنقوش عند مدخلها. تذكّرت الجامع القريب من بيتي.

كم مرّة وقف رالف فوق هذا الرّصيف، ونظر إلى الساحة، وإلى الموقف، وإلى البيت الغارق في الضوء والظلال، وإلى الدغل الذي يلفّه؟

يعود عند المساء. الحيّ هادئ، يقف هنا. يتأمّل السكينة. يبتسم لمشهد الرجل والكلب النائمين.

غداً، عليّ أن أزور والديه.

كيف تزور والدي رجل انتحر؟

ماذا تقول لهما؟ كيف تنظر إليهما؟ كيف تقف أمامهما؟

تذكرت والدي اسكندر في رواية «الظل والصدى». من أجلهما فقط امتنع اسكندر عن الانتحار وترك المسدّس يسقط من يده. لم ينتحر كي لا يورثهما غصّة أبديّة.

«وتصوّر في لحظة أخرى اللوعة التي لا شفاء منها التي

سيتركها لهما انتحاره، وقال: أهذا كلّ ما أكون استطعت أن أعطيهما؟».

«لن يستطيع أن يقتل نفسه وهما في الحياة، لا ضرورة لقتل نفسه وهما في الحياة، إنّهما يشدّانه إليهما، يطالبان بحضوره. إنّهما الثوب، إنّهما الثوب».

ركبت سيارة أجرة. هناك مروحة صغيرة مثبتة قرب المقود، تدور مصدرةً أزيزاً ناعماً. الزجاج مرفوع. أنظر إلى أضواء المحال. كأنّني في الكويت. لماذا؟ من الضوء، من الحرارة، من أزيز المروحة، من الزجاج الذي يفصلني عن الخارج.

ومن الثقل في قلبي أيضاً.

ليلاً حلمت أنّني ماأزال في العشرين من عمري، أدرّس مادّة الفيزياء في المدرسة الأميركيّة في الكويت.

استيقظت عند السادسة صباحاً. عرفت الوقت من نقطة الضوء الملتصقة بأعلى الباب. أعددت ركوة كبيرة من القهوة. شربتها ودخّنت خمس سجائر. جسمي يؤلمني. لم أنم جيّداً. قبيل الفجر أيقظني صوت المؤذّن. كنت أحلم أنّني في الكويت. كان الأمر كأنّني مازلت هناك. في تلك البلاد النائية.

قضيت في الكويت سنة واحدة. كنت قد تخرّجت من الجامعة لتوّي. سافرت إلى هناك ووقّعت عقداً مع المدرسة الأميركيّة. درّست مادّتي الكيمياء والفيزياء. ضربت أحد التلامذة بالمحاة، صرخت في وجه المدير، وتركت المدرسة. ركبت السيّارة المكيّفة إلى «مجمع الصالحيّة التجاري». إنّه يقع وسط العاصمة بالقرب من مجمع آخر يدعى «المثنى». مجمّعان ضخمان. الأوّل أبيض الجدران، الثاني أصفرها. كأنّك تنتقل من قصر مصنوع من الفضّة، إلى قصر مصنوع من الذهب.

قصر لأنّه مكيّف. لأنّه جزيرة باردة وسط صحراء من الغبار والحرّ الفظيع. ولأنّ هناك مكتبة بين متاجره.

داخل ذلك القصر المزدحم بالعباءات البيضاء والسوداء، كنت أبتعد عن تيّار العابرين وأغمض عينيّ، وأحلم أنّني في مكان آخر.

مكان بعيد جداً. مكان سرّيّ. أبعد من القطب الشماليّ. أبعد من

طرف الأرض.

مكان يشبه هذا الكهف.

كتبت قليلاً ثم غادرت. بينما كنت أمشي على الرصيف المحاذي لمبنى «سيّار الدرك» الأصفر الجدران تذكّرت منامي مرّة أخرى. ثم إنعطفت يميناً وصعدت في «طلعة بني معروف»، وانحدرت نحو تصالب نزلة الحص – أوتستراد التلفزيون.

تجاوزت التصالب ثم استدرت عند رأس النزلة القويّة منتظراً وصول الباص الذي يعمل على خطّ الحمرا – انطلياس. كانت السماء زرقاء داكنة. فوق «دار الطائفة الدرزية» القائمة على هضبة، حلّق سرب من الحمام. رأيت بعض الحمامات تهبط فوق الأشجار الطويلة. حمامات ناصعة البياض ترسم خطوطاً على قماشة السماء الزرقاء الداكنة. وخلال لحظة تتلاشى الخطوط.

قلت إنّها ستمطر. كانت هناك غيمة سوداء كبيرة معلّقة عند طرف السماء. ووصل الباص.

دفعت للسائق ٥٠٠ ليرة، فأعطاني تذكرتي. جلست قرب النافذة. إلى يساري رجل في العقد السادس من عمره. أنفه حادّ كالسكّين. يضع نظّارات بيضاء الإطار. وجهه كالشمع. أخذ يحدّق إليّ. إلى ركبتي. إلى «الشورت» الرمادي الذي أرتديه. قميصي الأبيض القصير الكمّين. ساعتي المكسورة الزجاج. صندلي الجلديّ الأسود.

ما به؟ هل أزعجه منظر قدميّ العاريتين؟ لكنّ أظافري مقلّمة بعناية.

نظرت إليه، أخذت أغنّي على صوت عالٍ:

***Humpty Dumpty sat on a wall***
***Humpty Dumpty had a great fall***

***All the King's horses and all the King's men***
***Couldn't put Humpty Dumpty on his place again.***

فأشاح بوجهه بعيداً.

في هذا الشارع ذاته مررت بالأمس في طريقي إلى البطريركية حيث بيت رالف. لكنّ الباص يتابع قدماً، ولا ينعطف يساراً. خلال دقائق نصل إلى الجسر. الطريق محاصرة بالبنايات المتداعية. إلى يميني، تحت الجسر، حديقة خضراء تتوسّطها نوافير ماء. هذه أوّل مرّة أنتبه إليها.

حين كنت أقطن في الأشرفيّة لم أكن أسلك هذه الطريق أبداً. لأنّي لا أطيق زحمة هذه الأحياء المكتظّة بالنّاس والسيّارات والروائح. فكنت أنتقل بين الأشرفيّة، والمنطقة الغربيّة من بيروت، مستخدماً خطّ «الخارجيّة» - جسر فؤاد شهاب - الحمرا.

ترجّلت من الباص في ساحة ساسين. انحدرت في شارع إلياس السيوفي. إلى يميني محلات «كل شيء للنظر» يليها فرن المناقيش. ثم البناية القديمة حيث يقيم مختار المحلّة. أمام البناية حديقة، أتأمّل أشجارها فيما أقترب من محطة الوقود.

تعبر قربي فتاة في تنّورة قصيرة. رجلان ضخمان، يستندان إلى سيّارة قريبة، يحدّقان إلى بطّتَيْ ساقيها ويصفران. كم يبلغ واحدهما من العمر؟

أرى شابّاً، في زيّ العمل الملطّخ بالشحم، ينحني فوق محرّك سيّارة. ماذا لو أفلت الغطاء وسقط على رأسه؟

أقترب منه وأسأله عن بيت ابراهيم رزق اللّه. يشير إلى بناية قريبة: الطابق السابع، يقول لي.

قرب المصعد بيت. إنّه بيت الناطور في أغلب الظنّ. على زجاج نافذة قريبة أُلصقت صحيفة. أقرأ العنوان العريض بينما أنتظر وصول المصعد: «الرجل الأبيض أفسد حياتهم ولخبطها، أطفال

الأمازون يكتشفون النار».

المصعد قديم. فور دخولي إليه أحسّني أدخل تابوتاً. لماذا؟ هل السبب سقفه المنخفض، أم ضيق مساحته؟ أنظر إلى المرآة. إنّها مرآة مستطيلة وصغيرة ولا تشبه مرايا المصاعد. مرآة لا أرى فيها إلاّ الجزء الأعلى من جذعي. بالإضافة إلى وجهي. كأنّ أحدهم قد انتزعها من فوق مغسلة ثم جلبها وثبّتها هنا.

يطلع المصعد بي إلى بيت ابراهيم رزق اللّه، فيما أحدّق إلى المرآة، وانعكاس الطوابق فيها. أرى الطوابق تهبط في إثر بعضها البعض، عبر باب المصعد المزوّد بزجاج شفّاف.

أخرج من المصعد. إنّه الطابق العلويّ. إلى يساري باب موصد. عن يميني باب مفتوح. أرى طاولة وجانباً من كنبة عتيقة. ثم تظهر امرأة عجوز. شعرها أبيض. وجهها تغطّيه التجاعيد. غارقة في السواد. نظارتاها سميكتان جداً، إطارهما باهت اللون. تنظر إليّ متسائلةً.

– إنّي أبحث عن بيت إبراهيم رزق اللّه.

– هنا، تقول. وتشير بإصبعها نحو قدميها.

فأتقدّم خطوة وأمدّ يدي: «أدعى ربيع جابر، أنا كنت أعرف المرحوم ابنكم، المرحوم رالف».

تصافحني. إنها محتارة. أبقى صامتاً. أحتفظ داخل يدي بملمس يدها. إنّها تشبه جدّتي. وأخيراً تقول: «ادخل، تفضّل!».

أتجاوز العتبة داخلاً. إلى يميني باب المطبخ. أمام المجلى يقف رجل عملاق. أرى فقط بروفيله الأيسر. إنّه ينظّف وجبة أسنانه بعود خشب. فانلّة بيضاء. بنطلون بيجامة كحلي. لا بدّ وأنّه الأب. أقول مرحباً، وأتابع طريقي إلى الداخل.

فوق الكنبات الخشبيّة العتيقة شراشف بيضاء تزيّنها زهور زرقاء صغيرة. الزهور مطرَّزة فوق القماش بخيط رفيع. ترى، من خاطها؟ الأمّ؟

قبالتي تلفزيون وفيديو مركَّزان فوق طاولة مصنوعة من الألمنيوم والزجاج، طاولة بطابقيْن. أين رأيت هذه الطاولة من قبل؟ بهذا الصدأ الذي يغطّي قوائمها؟ بهذه الأسلاك الكهربائيّة المتشابكة التي تتوزّع حولها؟ أفي بيت جدّي؟

تدخل امرأة في العقد الرابع من العمر. إنّها أخته. تسألني من أين أعرف رالف.

- من الملحق، ملحق النهار، أقول لها.

فتبتسم. لكنّي أبقى صامتاً ولا أتابع كلامي. إنّي أنتظر حضور الجميع، دخول الأب خصوصاً. أريد أن أقول ما سأقوله مرّة واحدة وحسب.

قالت المرأة: يجب أن تكون في ملحق الشباب.

أقول لها إنها الصدفة فقط أنني أكتب في الملحق، لا في ملحق الشباب.

يدخل الأب. أقف وأصافحه مكرّراً اسمي. ثم نجلس. فوراً يلفتني نحول صدره. الكتفان الغائرتان. الهبوط في الصدر فوق الثديين تماماً. اللحم الأبيض الرخو. شعره الأصفر - الأبيض المتجعّد والمتروك بلا قص وبلا تصفيف. ذقنه الحليقة. الشاربان الرفيعان. قدماه المنتفختان والمتورّمتان فوق الكاحلين. والحبوب الزرقاء التي تغطّيهما كبقع من الدم المتخثّر.

ليس وجهه عجوزاً.

لكنّه عجوز، عجوز، عجوز...

كما في قصّة «حزن الأب» لمحمود تيمور.

أنظر إلى الأرض منحنياً على ركبتيَّ. ويداي بينهما.

سألني هل أريد سيجارة.

- لا، شكراً.

- قهوة؟ سألني.

- شربت كثيراً عند الصباح.

صمتنا. كأنّنا في جنازة.

- كنت تعرف رالف جيّداً؟ سألني.

- ليس كثيراً. كنّا نلتقي في «الملحق» أحياناً.

صمتنا مرّة أخرى. كأنّ حوارنا القصير لم يكن شيئاً. فقط ضجّة عابرة. برميل تسقطه كلاب شاردة في عتمة ليلة صامتة كقبر. قرقعة لا تلبث أن تتلاشى.

الأمّ تهمس: رالف، رالف.

إنّها تبكي دون صوت. قبالتي. والأب على كنبة منفردة. أمّا الأخت فإلى يساري. كلّها كنبات صغيرة. كنبة الأم أطول قليلاً. كنبة الأب هي كرسيّ هزّاز أيضاً. هذه أوّل مرّة أرى فيها كنبة هزّازة.

هل هذه مطارحهم الثابتة؟ أهكذا يجلسون كلّ مساء أمام التلفزيون؟ والأم، ألا يؤلمها عنقها لأنّ التلفزيون خلفها تقريباً؟

ساقاها نحيلتان ومتجعدتان. تنّورة سوداء، وقميص أسود، وجوارب سوداء طويلة، ومشاية سوداء. الجوارب من النايلون السميك. المشاية تشبه مشاية حلا. لكن جلدها قديم ومتشقّق.

أخبرهم: أني أكتب رواية، إحدى الشخصيات فيها رالف ابنكم. البارحة ذهبت إلى بيته. وزوجته هي التي دلّتني على بيتكم.

تقول أخت رالف: البارحة مساءً؟

– صحيح. أجيبها.

فتتوجّه بالكلام إلى الجميع معاً: البارحة كنت أتكلّم مع الأولاد (تقصد أولاد رالف وحلا) على التلفون، فأخبروني أنّ هناك زائراً عند أمّهم.

لم تقل «زائراً».

قالت Visiteur. بالفرنسية.

مرّة أخرى عاد الصمت.

غادرت الأم إلى غرفة أخرى ثم عادت.

قال الأب: لا أحد كان يتوقّع أن يقوم بذلك. كانت صدمة للجميع.

قامت الأم واقفة، مشت بخطى قصيرة ومرتجفة، تجاوزتني، مضت بعيداً. إلى غرفة النوم ربّما.

الصالون حيث نجلس مفتوح على غرفة الطعام. أرى الطاولة والكراسيّ المصفوفة حولها. كما في جميع البيوت التي يسكنها العجائز. أثاث كان جديداً خلال منتصف هذا القرن. بعد الطاولة، «الدرسّوار». إنّها كلمة جاءت إلينا من اللغة الفرنسية «Dressoir». أي «خزانة الأطباق». خزانة منخفضة وطويلة. في داخلها رفوف للصحون والأكواب، وجوارير للملاعق والصحون والشوك. في بيت جدّي كانوا يضعون سلّة الملبّس باللّوز في الرفّ التحتانيّ، مخبّأةً خلف الصحون الكثيرة. ملبّس أبيض وأزرق وبرتقالي.

على سطح «الدرسّوار» صورة لرالف تتوسّط قرني غزال. القرنان يصنعان قوساً فوق الصورة.

أنتظر.

الأب يحدِّق إلى أصابعه. يدخن سيجارة أخرجها من علبة مارلبورو حمراء. أعرف أنّ المرأة - ابنته - تحدّق إليه. أنظر إلى الأرض، إلى السجّادة القديمة، إلى قدميّ، إلى صندلي الأسود.

- بابا! قالت له. كأنّها تطلب منه أن لا يبكي.

والآن، ماذا سيحصل؟ هل سيغضب ويصرخ في وجهي، في وجهها، في وجه العالم؟ أم هل سيحزن ويبكي حقاً؟

التفتَ مبتسماً: وما المطلوب منّا؟

كأب. كرجل متعب، لكن قويّ.

- صور قديمة له. إذا أمكن.

كانت الأم قد عادت، فأشارت إلى الصورة الموضوعة فوق «الدرسوّار».

- رأيتها. قلت.

قال الأب: الصور موجودة.

قالت له الأم: هل لديك صور له؟

أجابها الأب: في الألبوم، هناك الكثير منها في الألبوم.

فكّرت أنّ الأم خائفة. تخاف أن تضيع منها الصور أيضاً.

بقيت وحدي مع الأب.

سألته أين كان يتعلّم رالف.

قال اسم المدرسة. لم أحفظه. إنّها في الأشرفية.

قلت له: أعرف أنّه كان الأوّل في امتحان البكالوريا.

- كان متفوّقاً في جميع الصفوف، أجابني، حتى بعد أن سافر إلى السوربون ظلّ من الأوائل.

صادف مرور الأخت ماضيةً صوب المطبخ.

التفتت مقاطعةً حديث والدها: «ليس من الأوائل. لا. بل الأوّل. كان الأوّل. حتى في السوربون».

ذهبت الأخت. سمعتها تتكلّم مع الأم في الداخل. سمعت الأخت تتحدّث عن رسائل كان رالف يرسلها إليهم من فرنسا. يظهر أنّ الأم كانت تفتّش عنها.

تذكّرت في تلك اللحظة كلاماً من الأمس.

قالت لي حلا: «حين كنّا نجلس مع أهله كان فجأة يتبدّل - تقصد رالف - لا أعرف كيف بالضبط. لكنّه يتبدّل. خصوصاً في علاقته معي».

وأضافت: «أشعروه بالذنب دائماً. دائماً».

انتبهت إلى ساعة الأب. مدوّرة ذات ميناء أزرق كبير. رباطها معدني. فضّيّ اللّون. ألم يكن جدّي يملك واحدة مثلها؟

جاءت الأخت، جلست وقالت: «حين قدّم اطروحته لنيل الدكتوراه في السوربون، كانت القاعة مليئة بالأساتذة والطلاّب. حين انتهى من تقديم اطروحته خيّم الصمت على القاعة الكبيرة. هو خاف. فكّر أنهم لم يحبّوا أُطروحته. وفجأة نهض رئيس لجنة الأساتذة وتقدّم منه وقال.....»

تحدّثت الأخت بالفرنسية، لم أفهم الكلام الذي قاله رئيس اللجنة.

قلت للأخت إنّني لا أتقن اللّغة الفرنسيّة.

فترجمت لي أنّ رئيس اللجنة قال لرالف: «إنّ لبنان يجب أن يفخر بأنّك منه».

أطفأ الأب سيجارته. الفانلّة ترتجف فوق صدره. لا هواء يدخل إلى هنا. إنّه صدره.

نظرت إلى ساقيه. كانتا ثخينتي العظام. لا بدّ وأنّه كان قويّاً

جداً في شبابه. ربما مايزال.

وأسأل نفسي لماذا جئت إلى هنا؟

في ما بعد يتكلّم الأب فيسألني أين أسكن. لأنّه يحتاج وقتاً للتفتيش عن الصور لي.

أجبته كاذباً: قرب الحمّام العسكريّ.

ثم قلت له إنّني أقدر أن أمرّ في أيّ وقت يجده مناسباً.

– حسناً، قال.

سألني هل أعطتني حلا صوراً لرالف، فأخبرته أنّها هي أيضاً تبحث لي عن صور له يظهر فيها بأعمار مختلفة، وأنّني سأمرّ بها في وقت لاحق لآخذها. ربما بعد يومين. أو ثلاثة.

– يمكنك أن تمرّ اليوم مساءً إذا أردت. سأكون قد جهزت لك الصور. قال لي.

قلت له إنّني سأمرّ في الصباح.

– كما تشاء. قال.

صمتنا. أشعل لنفسه سيجارة. دخل هواء خفيف عبر باب الشرفة القريبة. كان موارباً.

قال الأب: هناك شخص آخر من صحيفة «النهار»، أعرفه. وبيته قريب منّا. اسمه الياس الخوري.

قلت: صحيح. هذا بيت أهله. هو يسكن في عائشة بكّار.

هل ذكر هذا الاسم كي يعرف المزيد عنّي؟ أم أنّه فقط يبدأ حواراً؟

سألته هل يملك أوراقاً قديمة لرالف، من أيّام المدرسة. أوراق كان يكتب عليها حين كان صغيراً.

– آنذاك لم يكن يكتب، أجابني.

صافحته وصافحت الأمّ. الأخت كانت في غرفة أخرى. باب البيت مايزال مفتوحاً. يبدو أنّهم لا يغلقونه. خرجت وَضَغَطْتُ على زرّ المصعد.

وقف الأب قربي في الممرّ القصير.

سألته: «هل تسكنون هنا منذ زمن بعيد؟».

– منذ عام ١٩٦٧، أي ٢٩ سنة. أجابني.

إنّه سريع في الحسابات الذهنيّة.

– لم أكن أعرف أنّ البناية قديمة إلى هذا الحدّ. إنّها تبدو جديدة، قلت له.

وكنت صادقاً لأنّي كنت قد نسيت المصعد الضيّق لهنيهة قصيرة.

– تبدو جديدة لأنّهم طلوا جدرانها قبل أشهر فقط.

– وأين كنتم تسكنون من قبل؟

– هنا، في الشارع الثاني. بعد المحطة.

وصل المصعد فجذبت بابه صوبي.

مدّ يده وأمسك بالباب لي.

دخلت. بقي واقفاً حتى ضغطت الزرّ في الداخل، وعندئذ فقط أغلق الباب وهو يرفع يده محيّياً.

أخذ المصعد يهبط بي. عبر الزجاج رأيت قدميه مرّة أخرى. وبيجامته الكحليّة. ثم أعتم الزجاج.

استدرت فواجهتني المرآة. للوهلة الأولى انتابني الذعر. ثم أدركت سبب إحساسي بالضيق. الضيق ذاته الذي انتابني عندما دخلت إلى هذا المصعد قبل ثلاثين دقيقة بالضبط. لأنّي، في

صعودي، نظرت إلى الساعة وكانت الثامنة والنصف. أمّا الآن فهي التاسعة إلاّ دقيقة. إلاّ نصف دقيقة. إلاّ لا شيء.

الضيق سببه هذه المرآة. لأنّها ليست طويلة كما تكون مرايا المصاعد عادة. وبالتالي فإنّي غير قادر على رؤية جسمي فيها. فقط أبصر صدري ووجهي. فأحسّني قصيراً وبديناً. كأنّني قزم.

منذ عام ١٩٦٧، قال الأب.

آنذاك كان رالف في السابعة عشرة. وطوال أيام وشهور وسنوات كان عليه أن يحدّق إلى هذه المرآة مرّات عديدة في اليوم الواحد، وأن يحس نفسه قزماً.

في ما بعد بات طويلاً جداً. وحين يدخل يلامس رأسه السقف. فيضطر إلى الانحناء بعض الشيء.

هذا المصعد كان يقتله. كان رالف يكبر، ويحسب أنّه بات أقوى. لكنّه لا يدخل إلى هذا المصعد إلاّ ويحسّ نفسه قزماً. لا يرى في المرآة إلاّ صدره، ولا يقدر أن يحرّك أطرافه. كأنّ الجدران تنطبق عليه. وكلّما كبر حجماً، وكلّما مرّت الأيام، انطبقت الجدران عليه أكثر فأكثر.

توقّف المصعد. قفزت منه إلى الخارج. كأنّني أقفز عن ظهر سفينة مثقوبة القعر – سفينة تبتلعها المياه المعتمة. مياه حالكة العتمة.

تساءلت هل توجد مرآة بشعة كهذه داخل المصعد في بناية خوجا. انفجر طنين الصداع في أذنيّ.

الهواء رطب. سوف تمطر. هنا رائحة بنزين. قطعت الطريق إلى الرصيف المقابل. قرّرت الدخول إلى فرن المناقيش. آكل منقوشة ثم أذهب.

هل كان رالف يحبّ المناقيش؟ ماذا كان يحبّ؟ الزعتر؟ الكشك؟ الجبنة؟

ابتعت منقوشة زعتر. فوقها رشّة سماق ورشّة سمسم. بضع أوراق من النعناع الأخضر الفوّاح الرائحة. شرائح رقيقة من البندورة. وقطعة مخلّل. كل هذا بألف ليرة.

على الجدار صور ملوّنة كبيرة من إصدار وزارة السياحة. بينها صورة لساحة البرج في أيام العزّ. أضواء وسيّارات. إنّها صورة ليليّة.

وسط الجدار علّقت رخصة المحل. بحسب المرسوم الصادر عام ١٩٦٧ هذا محل فول وحمّص لمارديني بالشراكة مع بردويل صاحب الملك.

إذن، هذا المكان لم يكن فرناً. بل مطعم فول مدمّس. تُرى، هل كان رالف يأكل هنا حين كان في السابعة عشرة؟

خرجت من الفرن.

مشيت صوب ساحة ساسين.

في طرف الساحة، إلى جهة مطعم الـ«Winners» انتصب هيكل ضخم من ألواح الخشب وقضبان الحديد. إنّهم يبنون مسرحاً لحفلة موسيقيّة. قرأت الإعلان في الصحيفة قبل أيّام. موسيقى وأغانٍ ورقص. سعادة البشر.

نزلت بمحاذاة صالة بشير الجميّل. أليس هذا نادي «أبناء نبتون»؟ لماذا بدّلوا اسمه؟ ومتى؟

تجاوزت مدخل الموقف وانحدرت في الشارع عن يميني.

ميتم زهرة الإحسان. أو المدرسة. أنعطف يساراً ثم نزولاً. نحو خط الخارجيّة. نحو سينما الامبير.

أرمي المنقوشة. ما تبقّى منها.

عند الزاوية دكان، مدخله مقفل بكومة هائلة من الكتب. تابعت طريقي.

في سيّارة الأجرة، فوق جسر فؤاد شهاب، التفتُّ ونظرتُ في اتجاه البحر. أعلام ملوّنة تخفق فوق الساحة الفارغة. هنا كانت ساحة البرج. الآن ترفرف الأعلام فوق ساحة من الرمال.

- ماذا تريد يا فتى؟ تكره الزحمة والنّاس، فهمنا. لكن ما حكايتك مع الصحراء؟ لماذا لا تحب هذه البقعة المهجورة؟ هذه البقعة الفسيحة؟

- لكن، ألا ترى هذه الأعلام؟

- ما بها الأعلام؟

تتعبني هذه الأصوات.

تمزّقني.

لا برج، ولا ساحة، ولا من يحزنون. فقط دمار شاسع. صحراء من الحصى والغبار، بحر آخر متّصل بالبحر الأزرق الكبير.

ترجّلت من السيّارة قرب مكتبة أنطوان. انحدرت في شارع جاندارك. صوب الجامعة الأميركيّة. كانت قد بدأت تمطر رذاذاً خفيفاً. كنت أخطو فوق رصيف تغطّيه الرمال. هناك ورشة بناء قريبة.

فوق الرمل رأيت خطى كثيرة. أنا أيضاً أضيف إليها خطى خاصة بي. وعمّا قليل يمحوها المطر. كلّها. خطاي وخطى الآخرين. وخطى الذين سيعبرون في ما بعد.

قطعت «شارع صيداني». المطر ينهمر. السيّارات تبدو فجأة أثقل. حركة النّاس أيضاً. العتمة في الفضاء. عتمة المطر الذي ينهمر فجأة.

خطوت فوق رصيف حجريّ نظيف. إلى يساري المبنى حيث سكنت قبل سنوات. كعب صندلي مبلّل بالماء. إنّي أطبع خطى من ماء فوق الرصيف.

وهذه الخطى ستبخّرها حرارة الجوّ.

أدخل إلى الجامعة. أقف لحظة في المدخل المسقوف. أنظر فوقي. ألواح خشب قديمة. أنظر إلى البلاط حول قدمي. يعبر كثيرون. يدخلون الجامعة أو يخرجون منها. بعضهم يذهب إلى اليمين. بعضهم إلى اليسار. الداخلون جميعاً يهبطون درج الكولدج هول.

وألاحظ أنّ الأرض مبريّة عند الجانبين ومرتفعة عند الوسط – وسط المدخل. فأقف في الوسط. التلامذة يمرقون من حولي، ولا أحد يصطدم بي. للمرّة الأولى أنتبه لهذه الحقيقة الغريبة: يفضلون أن لا يسيروا في الوسط. لماذا؟

أنظر قبالتي.

العمّال يرمّمون مبنى الكولدج هول المهدّم.

خلف المبنى، تظهر المكتبة.

وأفهم: لا أحد يمضي من هذه النقطة، وعبر هذه النقطة، لأنّه يقع في الخطر فوراً.

خطر ماذا؟

خطر أن تأخذه خطواته إلى المكتبة.

أضحك.

أمضي إلى المكتبة.

أفتح آلة التصوير الكبيرة. أخرج منها رزمة أوراق بيضاء. أُعرِّج على مكتب لا يجلس أحد خلفه. أنتقي قلماً من الحبر الأزرق. وأختار زاوية من المكتبة ثم أجلس وأكتب عن زيارتي الصباحيّة لأهل رالف.

منذ زمن بعيد لم أحاول أن أكتب شيئاً خارج كهفي.

«زارهما في نيسان... موسم الفراولة.

كانا ممدّدين، كُلًّا على سريره، يضطربان في نوم ليس نوماً. في نوم يشبه اليقظة.

انتصب على مدخل غرفة النوم وحدّق إلى الجسمين الممدّدين على السريرين الحديديّيْنِ.

ثم سمع صوت أبيه: «استيقظي... جاء الأستاذ. ها هو ابنك جاء يزورك. استقبليه. حدّثيه».

تمتمت الأم، وقد أعياها المرض، كلمات لم يفهمها الابن. ثم نظرت إلى «ابنها» الذي تجاوز الأربعين وقالت بعصبيّة: «الطقس بارد ولم تضع سترتك»... ثم أغمضت عينيها دون أن تنام.

تكلّم الأب عن الفراولة فقال: كنت أتمتّع بطعم الفراولة في فمي. أُمسكها - كنت أُمسكها - من عنقها الأخضر وأُغمسها حمراء في السكّر الأبيض ثم أضعها في فمي... أمضغها وأتركها تذوب، وأتمتّع بلحم الفراولة، وبدمها، وأيضاً بطعم السكّر... الفراولة تذوب في فمي. أمتصّ دمها. فيمنحني عمراً جديداً.

غريب. لم أعد الآن أحب الفراولة.

أضعها في فمي، أمضغها، فأجترّ الداء.

الفراولة لم تتغيّر وهي تتجدّد في كلّ المواسم.

أنا الذي تغيّرت. أضحيت خارج المواسم.

المواسم تمرّ ولا أتجدّد. أضحيت خارج المواسم.

ثم تكلّم الأب عن النوم فقال: كنت أحبّ النوم في الظلام. صرت الآن أخشى النوم. أترك لمبة تضيء ليلي الذي لا ينتهي. ولن ينتهي.

كنت في الماضي أسند جبيني إلى الحائط وأنام. صرت أكره الحائط. الحائط يخيفني. يسدّ كلّ شيء في وجهي. يحرمني المدى. أنام ثم أستيقظ فجأة من كابوس: أنا في قفص. أنا بكلّ بساطة، موضوع في قفص. أو في شبك. أعي فجأة أنّه كابوس. ثم أعود لأستغرق في نومي. أجد نفسي مجدّداً في قفص.

أمّا الزائر فبقي منتصباً.

ثم كتب عن الفراولة».

نشـر رالـف نص «الفـراولـة الأخـيـرة» في «الملحق» بتـاريخ ١٥ نيسان ١٩٩٥. في الختام يصف نفسه بـ«الزائر».

أعدت قراءة النّص، للمرّة التي لا أعـرف رقمـها، في تلك الليلة. أقرأ وأتذكّر رحلتي الصباحيّة إلى بيت أهله. أتذكّر الأب العجوز، وصوته الذي مايزال قويّاً. وأتذكّر الأمّ وقد غطّت التجاعيد وجهها، ونحلت ساقاها، وتضاءل جسمها. ثم أتذكّر نزولي في المصعد الذي يشبه القفص.

هل جاء كابوس الأب من ذلك المصعد الضيّق؟ المصعد الذي كان يصعد ويهبط فيه طوال حياته، من البيت إلى الشارع، ومن الشارع إلى البيت. وقبالته مرآة.

وأتذكّر ما قالته حلا: لم يكن يكتب عن أبيه. كان يكتب عن نفسه.

تلك الليلة لم أنم. كنت أنتظر الصباح كي أذهب إلى بيت أهله وأجلب الصور. قلت إنّني سأخلد إلى النوم بعد أن أجلبها. وقلت أنّني لن أنظر إليها إلاّ بعد استيقاظي من النوم.

منتظراً الصباح أشعلت شمعتين. فبعد منتصف اللّيل يُطْفَأُ مولّد

الكهرباء. وتغدو اللمبة التي قوّتها مئتا شمعة مجرّد بيضة زجاجية متّسخة تتدلى في فضاء الغرفة من سلسلة حديدية يتخلّلها شريط كهربائيّ أسمر اللّون. أتأمّلها بين حين وآخر وأتأمّل ظلّها المتطاول فوق السقف. وأفكر أنّ الظلال التي تصنعها الشموع تختلف عن الظلال التي تصنعها المصابيح الكهربائية، وأشعل سيجارة. أسكب مزيداً من الشاي في الكوب الزجاجيّ الشفّاف، ثمّ أعيد قراءة «مدخل إلى التعاسة»:

«... تزوّج زيد وأنجب أطفالاً وأضحى مشغولاً بزوجته وأولاده، والأقساط المدرسيّة. فاقتصرت زياراته لأبيه العجوز الذي كان ينتظره كلّ يوم على شرفة شقّته، على زيارة واحدة في الأسبوع فقط لا غير. وحين مرض الأب، ضاعف زيد زياراته لأبيه: أصبح يزوره مرتين في اليوم الواحد ساعياً في ذلك إلى مؤاساته، وإلى التعبير عن صدق مشاعره تجاهه. الأسلوب الذي اتّبعه الابن للتكفير عن ذنوبه من جهة، وللتصالح مع أبيه من جهة ثانية أدّى إلى عكس ما توقّعه.

ذلك أنّ الأب فوجئ بالتغيّر الذي طرأ على معدّل زيارات الابن واستنتج أنّه أضحى مقبلاً على الموت... تطيّر من زيارات الابن المتكرّرة وتمنّى ألا يزوره إلاّ مرّة واحدة في الأسبوع... كما في السابق.

لم يعد ينتظره كلّ يوم على شرفة شقّته في الطابق السابع في بناية من بنايات بيروت...».

أطفأت السيجارة في كوب الشاي، فأصدرت هسيساً. ثم خيّم الصمت مجدّداً. أبعدت الصحيفة والشراشف. وقعت الصحيفة أرضاً، فخشخشت أوراقها بينما هي تسقط. «وبعد قليل سيتعالى الأذان»، قلت لنفسي.

فكّرت أنّ رالف كان بمقدوره أن يكتب قصصاً. أصلاً مقالاته تشبه القصص. وسألت نفسي لماذا لم يفعل ذلك. ألم يكن يملك القدرة؟

بعد أن صدر الجزء الثاني من مغامرات أليس في عام ١٨٧٢، تحت عنوان «الجانب الآخر من المرآة»، سأل الصحافيّون المؤلف لويس كارول هل يخطّط لإصدار جزء ثالث من مغامرات أليس. كان دودغسون، وهو الاسم الحقيقي للمؤلِّف، قد بلغ الأربعين من عمره آنذاك. وقال للصحافيين إِنّه لا يعتقد أنّه سيفعل.

– لماذا؟ سألوه.

– لأنّ أليس لم تعد صغيرة. أجابهم.

التقى لويس كارول، أو تشارلز دودغسون، الفتاة أليس للمرّة الأولى في عام ١٨٥٦. كانت آنذاك في الرابعة. فكتب في دفتر يوميّاته: «بحجرٍ أبيض احفرْ علامة على هذا النهار». ولم يلبث أن بدأ بكتابة «أليس في بلاد العجائب»، فانتهى من تأليفه في عام ١٨٦٥.

التقى بها في رحلة بحريّة. كانت مع أختيها. أخذ يروي للثلاثة قصّة لتسليتهنّ. كان يؤلِّف القصّة فيما يرويها: فتاة تجلس قرب أختها. الأخت تقرأ في كتاب خالٍ من الصور ومن الحوارات. الفتاة لا تفهم ما قيمة الكتب الخالية من الصور ومن الحوارات. لذلك تضجر وتنعس.

فجأة يقفز أمامها أرنب أبيض ويعبر الحديقة راكضاً. يخرج ساعة من جيبه وينظر إليها. الفتاة تصاب بالدهشة. ما هذا، إنّه يملك ساعة!

وتسمعه يقول: «لقد تأخرت، اللعنة، لقد تأخرت».

ثم يركض أسرع وأسرع.

لم تستغرب الفتاة قدرة الأرنب على الكلام كالنّاس.

استغربت كونه يحمل ساعة.

ولحقت به.

حين نزل في حفرة نزلت هي أيضاً.

الحفرة عميقة جداً. أخذت الفتاة تهوي. عن جوانبها رفوف. على الرفوف أكواب وكتب. حاولت أن تتمسك بالرفوف فلم تقدر. وفكرت أنّها لن تتوقّف عن الهبوط أبداً. ثم ارتطمت مؤخّرتها بالأرض.

كانت الأرض ناعمة كالإسفنج.

هكذا بدأت رحلة أليس في بلاد العجائب.

– أليس!

– بلاد العجائب!

– رحلة!

الفتيات الثلاث يتقافزن حوله، ويسألنه ألف سؤال وسؤال. أخذ الزورق يهتزّ فوق سطح البحيرة. ولويس كارول يبتسم.

يروي ثم يتوقّف فجأة.

يقول لهنّ: «هذا كلّ شيء حتى المرّة القادمة».

يضحكن: «آه، لكنّها المرّة القادمة».

فيضحك ويتابع القصّة.

الصحافيّون كانوا يعرفون أنّ أليس من مواليد ١٨٥٢.

فقالوا للمؤلّف: «لكن أليس لم تعد صغيرة منذ زمن بعيد. ورغم ذلك ها أنت قد أصدرت جزءاً ثانياً من مغامراتها. فلماذا لا تصدر جزءاً ثالثاً؟».

لم يقل شيئاً. ظلّ صامتاً.

كان ذلك في عام ١٨٧٢.

مرّة أخرى تساءلت: لماذا لم يكتب رالف قصصاً؟ ثم بدأت أقوم ببعض العمليّات الحسابيّة: لقد وُلد لويس كارول في عام ١٨٣٢. ذلك يعني أنّه كان في الرابعة والعشرين حين التقى أليس للمرّة الأولى.

في الرابعة والعشرين؟

بلى، عمري الحالي.

ورالف تزوّج قبل أن تبدأ «حرب السنتين». حرب السنتين بدأت عام ١٩٧٥. هو من مواليد أيلول ١٩٥٠. أي نهايات ١٩٥٠. ذلك يعني أنّه قد تزوّج في الرابعة والعشرين.

لكن لماذا لم يكتب قصصاً؟

في عام ١٨٦٩، قبل ثلاث سنوات من صدور كتابه الثاني من مغامرات أليس الخياليّة، كتب لويس كارول في دفتر يومياته: «إذا دخلت أليس عبر المرآة، فسأدخل خلفها. تُرى، كيف سنتحرّك في الداخل؟ أنكون أخفّ؟ أم أثقل؟».

الجواب عن هذا السؤال نعثر عليه في الكتاب نفسه. كتاب «الجانب الآخر من المرآة». فبعد أن تدخل أليس عبر الزجاج الذي ذاب متحوّلاً إلى ضباب فضّيّ متألّق يشبه صفحة مياه رائقة، تجد نفسها فجأة تتحرّك كأنّها تنزلق أو تعوم أو تطفو.

كأنّ الثقل قد غادر جسدها.

ففي الغرفة الأخرى، الغرفة التي في المرآة، تبدو جاذبية الأرض كأنّها قد ضعفت فجأة.

كأنّنا لم نعد فوق كوكب الأرض.

تنزلق.

تعوم.

تطفو.

لماذا استخدم لويس كارول هذه الكلمات لوصف أليس وحركتها في اللحظات الأولى من دخولها إلى عالم المرآة؟ هل كان يتذكّر تلك الرحلة البحريّة القديمة؟ الرحلة في الزورق قبل ستّة عشر عاماً، أيام كان مايزال في الرابعة والعشرين، أيّام بدأ بتأليف القصّة

الشهيرة للفتيات الثلاث، لأليس؟ هل كان يفكّر في عالمٍ سرّيّ تحت سطح البحر؟

في الرواية الأولى، في الكتاب الأوّل، اخترع كارول عالماً سرّيّاً تحت الأرض. عالم «بلاد العجائب» الذي وصلت إليه أليس بعد أن سقطت في حفرة الأرنب. أمّا في الرواية الثانية، في الكتاب الثاني، فإنّنا لا ندخل إلى هذا العالم عبر حفرة في الأرض بل عبر سطح زجاجيّ يشبه الماء.

لأنّنا في الزجاج نرى وجهنا.

وفي الماء أيضاً.

في صيف ١٩٩٣ حاولت أن أتعلّم السباحة. لم أقدر. «إنها مشكلة أعصاب»، قال لي أحدهم، «إنّك تفكّر في الماء كثيراً». كان يسبح قريباً منّي. لم أكن منتبهاً إليه.

– طبعاً، أفكّر في الماء. كيف لا أفكّر فيه؟ قد يقتلني.

ضحك السابح المتطفّل: «لا تخفْ من الماء، فتعوم. فقط لا تخف. استرخِ. اتركْ أعصابك وشأنها».

ثم ابتعد سابحاً نحو المياه العميقة بسرعة.

«اتركْ أعصابك وشأنها»؟

كيف يمكنني ذلك؟ ماذا أملك غيرها؟

ويريدني أن أتركها؟ ماذا يبقى لي؟

لم أتعلّم السباحة. كان جسدي يغرق غصباً عنّي.

خرجت من الماء.

نرسيس لم يخرج.

رالف كان يتقن السباحة.

منذ طفولته.

هل كان يترك أعصابه وشأنها؟

هل ترك أعصابه وشأنها حين قفز؟

بهذه الأسئلة أجبت عن السؤال «لماذا لم يكتب رالف قصصاً؟»، في تلك الليلة من حزيران.

عند الفجر تعالى صوت المؤذن.

قرابة الثامنة غادرت غرفتي.

مشيت في الشارع، وتذكرت الأسئلة التي صنعت منها جواباً عن سؤالٍ آخر، وقلت لنفسي إنّني أبله. أبله وحسب.

صعدت في الطلعة قرب «سيّار الدرك». وكما في الصباح السابق، انحدرت نحو تصالب الأوتستراد - الحص. زحمة، أبواق سيارات، صفّارة شرطيّ، ورطوبة.

أقف منتظراً الباص.

لا أحد بقربي.

كالعادة.

الطريق ذاتها.

الأحياء المكتظة. الجسر. البنايات المتداعية. مستديرة «بشارة الخوري». ثم الطلعة المؤدّية إلى «جادّة الياس سركيس». إلى اليمين سور عالٍ خلفه قصر وأشجار. الشارع عريض. ثم تظهر ساحة ساسين. لا شيء تبدّل: فقط زحمة فوق الجسر.

أقفز من الباص كما في البارحة. ثم انحدر في الشارع القريب من مطعم Chase، وللمرّة الثانية في حياتي أنعطف يساراً لأعبر الزقاق المؤدّي إلى بيت إبراهيم رزق الله.

داخل المصعد أتعمّد ألاّ أنظر في المرآة. فأواجه زجاج الباب مراقباً تتابع الطوابق: تظهر أوّلاً أرض مبلّطة ببلاطات صغيرة، بيضاء ومنقّطة بلون أسمر، ثم يظهر الجدار. من الجدار أرى أوّلاً أسفله، وبعد ذلك زر الكهرباء الخاصّ بلمبة الطابق، وفوق الزرّ رقم الطابق مطبوعاً بالحبر الأسود.

وصل المصعد إلى الطابق السابع. من الزجاج رأيت أمّ رالف. تمدّ يدها وتفتح الباب بأن تجذبه صوبها. أخطو خارجاً من المصعد، فتدعوني إلى دخول البيت. بوّابة البيت تبعد عن المصعد قرابة متر واحد فقط.

نزلت الأمّ في المصعد.

دخلت إلى البيت عبر الباب المفتوح.

كان الأب واقفاً في المطبخ. كما في البارحة: الفانلّة البيضاء، البيجامة الكحليّة. الشعر الأبيض - الأصفر الجعد والمتروك لشأنه، وجبة الأسنان في اليد اليسرى، عود القشّ المدبّب الرأس في اليد الأخرى، وانحناءة الظهر فوق المجلى القديم.

كأنّه يقف هنا منذ ولادته.

كأنّ الزّمن جامد في حياة هذا البيت.

كأنّني أمام صورة فوتغرافية.

قال لي ملتفتاً: «تفضّل».

وأشار إلى البهو حيث جلسنا البارحة.

في الداخل كانت الأخت، التي سأعلم خلال هذه الزيارة أنّها تدعى سيلفانا، تطوي فراشاً ممدوداً فوق السجّادة.

دعتني إلى الجلوس بينما كانت تحمل الفراش الخفيف وتتحرك صوب غرفة النّوم القريبة.

فكّرت أنّهم - الأمّ، ثم الأبّ، والآن الأخت - يتصرّفون معي بألفة بالغة. كأنّهم يعرفونني منذ زمن طويل. منذ طفولتي.

جلست ثمّ نهضت. الأب في المطبخ. الأخت في غرفة النوم. الأمّ نزلت بالمصعد. قلت أتفرّج على الشرفة.

وجدتها ضيّقة. مساحتها تساوي مساحة الفراش الذي طوته سيلفانا قبل لحظات. تذكرت فراش مار شربل. قبل سنتين صعدت إلى دير مار شربل الشهير وتفرّجت على فراشه المحفوظ كما هو

داخل «المحبسة». فراش صغير جداً، كأنّه صُنع لطفل أو لصبيّ.

على الشرفة طاولة وكرسي من البلاستيك الأبيض المتين. فوق الطاولة منفضة زجاجية فيها عقب سيجارة واحد، ووعاء فخّاريّ زُرعت فيه شتلة حبق. هل دخّن الأب هذه السيجارة قبل مجيئي؟ هل كان جالساً هنا بانتظار وصولي؟

رائحة الحبق قوية وعطرة. تنشقتها ونظرت إلى التلال البعيدة. لاحظت وجود عجلة حديدية مثبتة إلى الدرابزين، ومزوّدة بحبل طويل يتكوّم تحت الطاولة. لا بدّ وأنّهم يربطون طرف الحبل إلى سلّة أو سطل ويدلونه من هنا إلى الدكّان الذي في أسفل البناية حين تكون الكهرباء مقطوعة. وتخيّلت صاحب الدكّان يملأ لهم الوعاء بحبّات البندورة، وتخيّلت الأمّ تسحب السلّة المليئة بالبندورة، فترتجف ذراعاها وتتشكّل قطرات عرق فوق جبهتها ثم تسيل حتّى طرف أنفها. هل ستقع حبّات البندورة الحمراء الناضجة من السلّة؟ كان عليها أن تطلب من البائع أن يملأ لها السلّ بحبّات قاسية! لكن...

ونسيت الأمّ، وتساءلت مرّة أخرى هل يجلس الأب على هذا الكرسيّ في كلّ صباح؟ وهل انتظرني في هذا الصباح بالذات؟

ثم عدت إلى الداخل.

فقط أعلم أنّه على هذه الشرفة كان ينتظر رالف.

جلست حيث كانت سيلفانا جالسة صباح البارحة. قلت هكذا لن تتكرّر حوادث النّهار الفائت. وتذكّرت مشهد الأب داخل المطبخ. ورحلتي إلى هنا بالباص. أحياناً يحصل لي هذا. أعيش لمدّة أسبوعين أو أكثر نهاراً واحداً فقط يتكرّر المرّة تلو المرّة حتى أصغر تفاصيله.

لا أريد أن يحصل هذا الآن.

وتذكرت الزحمة التي اعترضت الباص فوق الجسر، قبل ربع ساعة فقط، وقلت إنَّ هذا النهار يختلف عن البارحة. فعلى الجسر، قبل قليل، كانت هناك سيّارة معطّلة ومتوقّفة وسط الطريق. واضطرّ سائق الباص إلى أَنْ ينتظر وصول من يبعد السيّارة عن الدّرب، وطال انتظاره وانتظار الركاب وانتظاري قرابة الخمس دقائق، وخلال هذه الفترة غفوت. وحين فتحت عيني، إذ كان الباص ينطلق بقوّة، وجدت قلبي ينبض بسرعة، كأنّني خرجت لتوّي من كابوس.

قربي على الطاولة علبة دخان. فتحتها. سجائر بيضاء طويلة ورفيعة. لا أحد يملك أصابع تشبه هذه السجائر. هذا أمر مؤكّد. أرأيت؟ هناك أشياء يمكنك أن تفكّر أنّك تعرفها جيّداً جدّاً.

التفتُّ صوب «طاولة السفرة». رأيت فوقها أكياس خبز أسمر. لماذا خبز أسمر؟ ألأنّه خالٍ من السكّر؟ هل هم مرضى بداء السكّريّ؟ ربّما.

الفراش الذي كان ممدوداً هنا، ما لونه؟ أيضاً أسمر. لماذا كان الفراش هنا؟

أتذكّر أني رأيت قطرة عرق صغيرة تحت أنف سيلفانا. هل كانت تتمرّن؟ هل كانت تستخدم الفراش كي تتمرّن فوقه؟ بعض الحركات السويدية ربما. تمارين لعضلات البطن. أو لشدّ الصدر.

أم أنّ الأب ينام هنا؟

لكن الفراش بالكاد يتّسع لجذعه؟

ربّما يتكوّم حول نفسه حين ينام.

اقتربت سيلفانا حاملة مجموعة من الصور، وصحيفةً صفراء مطويّة. حين تتكلّم أتذكّر فتاة عرفتها في الجامعة. تلك الفتاة أيضاً كانت تحبّ الشمس؛ يبدأ الصيف في نهار الاثنين فتراها في الثلثاء

صباحاً وقد لوّحتها الشمس وحوّلت لون شعرها إلى أشقر محروق.

جلست سيلفانا حيث كنت جالساً في البارحة. أخبرتني أنّ والدها يحلق ذقنه وأنّه سيأتي بعد لحظة. أخذنا نتفرّج على الصور. صور لرالف وهو صغير، وهو شاب، وهو رجل. في لبنان، وفي فرنسا، وفي كندا.

في فرنسا ترك لحيته تطول. وشعره أيضاً.

في صور مراهقته يضع نظّارات سميكة. وفي صور شبابه تغدو نظّاراته أسمك من السابق.

– لم أكن أعلم أنّه يشكو من ضعف في نظره.

ابتسمت سيلفانا وأخبرتني أنّ كثيرين لا يعرفون لأنّه يضع عدسات لاصقة.

في الصور رأيته كثلاثة أشخاص أو أربعة مختلفين واحدهم عن الآخر. فهو، ملتحياً، لا يشبه أبداً صورته دون لحية. وهو مع النظّارات ليس رالف الذي أعرفه. أمّا حين يحلق شاربيه فإنّه يغدو غريباً حتى عن نفسه.

كأنّه لم يكن شخصاً واحداً.

فتحت سيلفانا الصحيفة المطويّة. إنّها صحيفة لبنانيّة كانت تصدر باللّغة الفرنسيّة قبل سنوات. أقرأ التاريخ المكتوب في أعلاها. إنّها تعود إلى عام ١٩٨٣.

– هذه مقابلة مع رالف ومع جورج خوري، قالت.

أنظر إلى صورة رالف. كأنّه ليس هو. نظارات وسيجارة ومعطف واقٍ من المطر.

في إحدى الصور يظهر واقفاً قبالة أمّه.

استجمعت أنفاسي وسألت سيلفانا عن صحّة والدتها.

– الحمد للّه. أجابتني.

بعد ذلك قالت إنّ أمّها لم تعد تعرف كيف تنام. كأنّها نسيت. هي، الأمّ، تقول لهم ذلك كلّ صباح. طوال الليل تتقلّب فوق سريرها الحديديّ دون فائدة. كلّما أغمضت عينيها رأت وجه ابنها. تمسّد له شعره بيدها وتقول له إنّ عليه أن ينهض من النوم. لقد تأخّر الوقت وعليه أن يمضي إلى مدرسته. هيّا، هيّا يا رالف.

لكنّ رالف لا ينهض. لأنّه لم يعد صغيراً. لأنّه لم يعد بحاجة لأن يستيقظ كلّ صباح ليذهب إلى المدرسة راكضاً قبل موعد قرع الجرس. لأنّه لم يعد هنا. لأنّه ميت.

لهذا لم تعد الأمّ تنام.

– حتّى قبل موته، قالت سيلفانا.

قالت إنّ ذلك حصل حين لم يعد رالف يزورهم. وإنّ ذلك كان قبل شهر من موته. فطوال الشهر الأخير من حياته لم يزرهم، ولو لمرّة واحدة. ولو زيارة خاطفة.

قالت سيلفانا إنّهم اتصلوا به هاتفياً وعاتبوه على غيابه وقالوا له إنّ أمّه مشتاقة إليه جدّاً جدّاً وإنّها لا تقدر أن تنام اللّيل لأنّها تريد أن تراه. فأجابهم إنّه كان مشغولاً بدخول الأولاد إلى المدرسة؛ كتب وباصات ودفاتر وأقساط وهذه الأشياء. وقال إنّه آسف وإنّه سيمرّ عليهم عمّا قريب.

لكنّه لم يمرّ عليهم.

توقّفت سيلفانا عن الكلام.

أخرجت علبة الدخان من جيبي.

– لا، شكراً. قالت لي.

أعطيتها محرمة من العلبة القريبة وأعدت علبة الدخان إلى جيبي. وهبّ هواء خفيف عبر بوّابة الشرفة ودخل في تجويف أذني

اليسرى ودغدغني كأنّه ريشة.

بين يديها كانت تمسك الآن بصورة جديدة له. من هذه السنة أو السنة الفائتة. هو وعائلته وعائلة أخيه روني. أخذت تدلّني على أولاده. البنت الكبيرة تدعى سمر. الابن أصغر منها ويدعى إبراهيم. رالف سمّاه على اسم والده. البنت الأخرى تدعى مايا.

- أصغر من أخيها؟.

- لا، إبراهيم هو الأصغر. أجابتني.

- وابنته سمر كبيرة؟

- في صف البكالوريا.

صمتَتْ هنيهة قصيرة ثم تابعَتْ قائلة: كانت هناك حين وجدوه. هي رأته أوّلاً.

حدّقت إليها. الآن سأعلم.

لم أقل لها: أخبريني.

لن أقول ذلك لأحد أبداً.

حين تطلب فأنت لا تعود حرّاً.

وبدون حريّتك كتابتك خداع وقذارة.

أعلم هذا جيّداً. ولأنّي أعلمه أعيش تحت الأرض.

قالت لي: «السبت صباحاً، حين حصلت الحادثة، كنّا ذاهبين لزيارته في بيته. وصلنا فوجدنا أنّ حلا مشغولة البال عليه. ما بكِ؟ سألناها. أين رالف؟ فأجابتنا أنها خائفة أن يكون قد ذهب لينتحر. وقالت إنّه منذ فترة وهو يقول إنّه يحلم بالقفز عن صخرة الروشة».

سألوها في أي وقت خرج.

- عند التاسعة. أجابتهم حلا.

نظروا إلى الساعة. إنّها الحادية عشرة. لقد خرج منذ ساعتين.

- إلى أين قال إنّه ذاهب؟ سألوها.

- إلى مكتبة أنطوان. أجابتهم.

قالوا لها إنّه يمكن أن يكون قد تأخّر في المكتبة فهو يحبّ الكتب. والتفرّج عليها. فلماذا هي خائفة هكذا؟ ما الأمر؟ ثم قالوا لها إنّ رالف لا يمكن أن ينتحر. فما هذا الكلام الذي تقوله؟ كيف تفكّر في هذه الأشياء؟

لكن، وللاطمئنان فقط، ذهبتْ سيلفانا مع صهرها سامي، زوج منى، وأخذا يبحثان عنه في الشوارع. أوّلاً قصدا مكتبة أنطوان في الحمرا. وبعد ذلك انطلقا في اتّجاه صخرة الروشة. لم تكن هناك سيّارات كثيرة على الكورنيش. وفتّشا عنه ولم يجداه. وعندئذ عادا إلى البيت في البطريركيّة.

- ماذا؟ سألتهما حلا.

- لا شيء. لم نجده. أجابا.

كانت الساعة تقارب الواحدة والنصف ظهراً.

قالت سمر: أريد أن أذهب إلى الروشة الآن. الآن.

هكذا مضت حلا بصحبة ابنتها سمر مع سامي في سيّارته. أوقفوا السيارة بمحاذاة الرصيف المواجه لصخرة الروشة ثم ترجّلوا منها.

بعد ساعة من البحث رأته سمر.

وكان يطفو فوق الصخور ميتاً.

وكان البحر قد خطف الفردة اليسرى من حذائه.

قامت سيلفانا واقفة. كانت ترتجف.

عليها أن تذهب إلى عملها. مضى الوقت دون أن تنتبه. الحكي سرقها. نظرت إلى ساعتها مرّة أخرى. لقد تجاوزت التاسعة. دخلت إلى غرفة النوم لتجلب حقيبتها. عادت ووقفت أمامي. قالت إنّ والدها سيعطيني نمرة الهاتف الخلويّ كي أتّصل بهم إذا أردت شيئاً.

أسألها أم لا؟

كانت تنظر إليّ. بادلتها نظرتها. هل ستفهم؟

هل ستفهم أنّني لا أقدر. أنّني لن أسأل. أنّ عليها أن تتكلّم وحدها، بنفسها، ودون أن أطلب منها ذلك.

قالت لي: أبي يكابر على عواطفه. هو هكذا. لكنّه من داخله بات...

توقّفت عن الكلام، جلست مرّة أخرى.

– أعرف ماذا يقولون، يقولون إنّ رالف انهارت أعصابه بعد أن مرض والدي، وإنّه...

تهدّج صوتها.

هل أعطيها محرمة أخرى؟

لكنّها لا تبكي.

لو أقدر أن أجلب لها كوباً من الماء.

لماذا جئتُ إلى هنا أصلاً؟

– ذلك غير صحيح. صدّقْني. طبعاً رالف تأثّر كثيراً بمرض أبي وأمي. لكنّ الجميع...

– أعرف، أعرف. قلت لها.

– أنا مثلاً كنت منهارة، قالت لي، لكنّ رالف ذهب إليّ في مركز عملي وقال لي إنّ عليّ أن أهدأ. وإنّ عليّ أن أفهم أنّ أبي قد يموت، أنّه سوف يموت ذات يوم. وإنّ عليّ أن أتعلّم كيف أتقبّل هذه الحقيقة. قلْ لي، هل يكلّمني بكلّ هذا الهدوء، وبهذا المنطق، ويكون منهاراً؟

كانت تريد منّي أن أقول لها.

كانت تغرق وتنادي عليّ كي أرمي لها خشبة.

ماذا كان بوسعي أن أفعل؟

– فهمت. قلت لها.

قلت لها إنّني قد فهمت.

ابتسمت لي.

قلت لنفسي إنّ لحظة كهذه، من سنة إلى أخرى، قد تبرّر بقاء المرء في هذا العالم.

وفي اللحظة التالية، قلت: «بالعكس».

دخل الأب حاملاً صينيّة القهوة. على الصينيّة فنجانان فارغان ومنفضة معدنيّة وكوب ماء.

سألني مبتسماً كيف أشرب قهوتي.

قلت له إنّني أشربها مرّةً.

- بلا سكّر أبداً! سألني.

- أبداً. أجبته.

بعد قليل عاد حاملاً ركوة زرقاء. كان البخار يتصاعد منها. فاحت رائحة الهال. تذكرت جدّي. والقهوة التركية على المصطبة. ورائحة التراب المبلّل التي يحملها إلينا الهواء من البستان القريب.

جلس حيث كنت جالساً البارحة.

الطاولة الصغيرة بيننا. ملأ الفنجانين.

رشف رشفة ساخنة. ابتسم وقام واقفاً. دخل إلى المطبخ وجلب كوباً زجاجياً فيه بعض السكّر.

- أحبّها حلوة عند الصباح. قال لي شارحاً.

فتح علبة مارلبورو حمراء، مدّ يده صوبي، أخذت سيجارة. أشعلها لي بعود كبريت. لاحظت أنّ أصابع يده لا تشبه أصابع رجل عجوز، بل أصابع طفل. لكنّها أصابع طفل مطروقة بشاكوش:

متورّمة وزرقاء عند العقَد.

أصابع بلا تجاعيد. بلا عروق نافرة. بلا نقط سوداء.

أشعل لنفسه سيجارة بالعود المشتعل ذاته.

في ذهني أضفت صفة ثالثة إلى صورته، بعد سرعة حساباته الذهنية وبعد الارتجافة الخفيّة لصدره: إنّه خبير بالوقت، ويريد من الأشياء أقصى ما يقدر على أخذه منها.

نفخ العود بقوّة فانطفأت الشعلة.

إنّه أيضاً يحب أصابعه.

على الطاولة، قرب الصينية، صور رالف. في إحداها، ينتصب مستقيماً في بذلة سوداء. على قفا الصورة ختم «الشعبة الثالثة» في الجيش اللبناني. صورة قديمة جداً. بالأبيض والأسود.

أخذ يحدّق إليها دون أن يمسك بها.

أخذ نفساً عميقاً من سيجارته. قلت لنفسي إنّه سيتكلّم بعد أن ينفخ الدخان خارجاً.

لم ينفخ الدخان خارجاً. ورشف قهوته الحلوة ساخنةً.

مع الوقت تتعطّل الأعصاب الدقيقة الموجودة فوق سطح اللسان؛ أين قرأت هذا؟

حاولت أن أرشف من فنجاني. كدت أحرق نفسي. أعدت الفنجان إلى مكانه. لمست طرف الصورة بإصبعي.

– رالف! قال متنهداً.

التفتّ صوبه، لم أنظر إلى وجهه، لكن في اتجاهه. لا أريد أن أنظر في عينيه. ليس الآن.

– كان يريد أن يدخل إلى الكلّيّة الحربيّة. كان في السابعة عشرة. هو وواحد من أصدقاء المدرسة. صديقه صار كولونيلاً.

اسمه روجيه سماحة. رالف لم يقبلوه في المدرسة الحربيّة. بسبب نظره، قالوا. وأعادوا له صورته. لم يقبلوا لأنّ والده قوميّ.

– كنت قوميّاً؟ سألته.

– ومازلت. أجابني.

قال: «والده».

وكان يتحدث عن نفسه.

لماذا لم يقل: «لأنّي»؟ لماذا قال: «لأنّ والده...»؟

وتذكرت نصّ «الفراولة الأخيرة».

ووصف رالف لنفسه بـ«الزائر».

وقول الأب للأمّ: «جاء ابنك».

هل يعني كلّ هذا شيئاً؟

نفض السيجارة، سقط الرماد وسط المنفضة تماماً في كتلة واحدة. لا أتقن نفض السيجارة على هذا النحو. دائماً تتناثر كتلة الرماد، التي أنفضها، عن رأس سيجارتي، قبل أن تصل إلى المنفضة. أحياناً لا تنفصل عن رأس السيجارة أصلاً. فقط ترتجف وترتعش ثم يتطاير منها بعض ذرّات، فيغدو رأس سيجارتي مدبّباً ويشعاً كرأس قلم رصاص محترق.

سألني هل أكتب الرواية وحدي أم مع آخرين؟

– لا، أكتبها وحدي. أجبته.

وللحظة خاطفة تذكّرت الغرفة الموصدة.

سألت الأب عن أصل العائلة، وهل هم من الأشرفية؟

أجابني أنّه نزل إلى بيروت في عام ١٩٢٨.

في الخارج ضجّة وأبواق سيّارات. أخذ الأب يخبرني عن أيّام الفرنسيّين. أيّام الشباب. عن عمله معهم. كجنديّ. ثم كمدنيّ. عن عمله كمتعهّد بناء بعد رحيلهم عن لبنان. عن شغله الناجح. عن الخسارة التي مُني بها عندما بدأت الحرب. وعن الجلطة التي أصابته عقب ذلك.

انحنى ورفع بنطلون البيجامة عن ساقه اليسرى. يريد أن يريني الموضع حيث بقيت ساقه تؤلمه دائماً.

لم أنظر.

تظاهرت أنّني أنظر، ولم أنظر.

لأنّي فجأة تذكرت:

كنت أمشي في شارع طويل ومبلّل بالمطر. فجأة أحسست بجسمي يزداد ثقلاً. كأنّني أغوص في الأرض. ثم انتبهت. كلا، إنّني لا أغوص في الأرض، إنّه جسمي ينكمش ويتضاءل كقطعة قماش في مياه تغلي، إنّني أتحوّل إلى قزم، إنّني أسيل وأتجمّع كالشمع داخل فردتي حذائي.

هل هذا ممكن؟

نظرت إلى أسفل فاكتشفت السبب. إني لاأزال كما كنت. ذراعاي. صدري. رأسي. ما فوق ركبتي. لكن ليس قدمي.

إني أمشي بقدمين ليستا لي. كأنّ قوّة خفيّة قد قامت بتبديل أطرافي السفلى كما يبدّل المرء عادة بنطلونه أو حذاءه.

عوضاً عن قدمي كانت توجد تحتي الآن قدمان متورّمتان تغطيهما الحبوب الصغيرة والبقع الزرقاء - الحمراء.

نعم، كنت أسير بقدمي ابراهيم رزق اللّه. والد رالف.

فجأة اهتزّت الأرض.

فتحت عينيّ. وجدت الباص يتحرّك. لقد أزاحوا السيّارة المعطّلة بعيداً عن الجسر.

أنزل الأب بنطلون البيجامة.

سكب في فنجانينا المزيد من القهوة. هذه المرّة لم يضع سكراً في فنجانه. اكتفى بالسكر الذي ترسب مع ثُفل القهوة في قعر الفنجان.

لماذا التورّم في قدميه؟

هل هو داء السكّريّ؟ أم مرض القلب؟

تذكرت قعر فنجانه قبل أن يملأه مجدّداً. لم يكن الثفل رائق الوجه، كما الثفل في قعر فنجاني. بل كان متموّجاً ومغطّىً بحبوب دقيقة كالبرغل. إنّها ذرّات السكّر، قلت.

وفكّرت أنّها تشبه الحبوب على قدميه.

أخرجت علبة الدخان من جيبي.

وضعتها على الطاولة أمامي.

تحت إبطيه لون الفانلّة أسمر.

من العرق ربّما.

سألني هل ستأخذ الرواية وقتاً طويلاً حتّى أكتبها.

- ليس طويلاً جداً. أجبته.

سألني هل أهلي أحياء؟

- نعم، قلت.

سألني عن أبي، أما يزال يعمل؟

- نعم، قلت ثم أضفت أنّ عمره ٥٧ سنة.

فقال لي: إنّه شابّ، أنا أصبحت في الثمانينات.

تذكرت أمرين: أنّه أخبرني عن نزوله إلى بيروت عام ١٩٢٨ حين كان مايزال في العاشرة من عمره. وأنّه قبل لحظتين فقط سألني هل ستأخذ الرواية منّي وقتاً طويلاً.

حاولت أن أتذكّر نظرته حين كان يقول ذلك.

سألني: أليس عندك هاتف؟

قلت لا.

- وجيرانك؟

- إنّي لا أعرفهم.

- تحب أن تكون مستقلاً. قال لي وهو يبتسم.

ولم يكن ذلك سؤالاً، أو استفهاماً.

ولم أعرف ماذا أقول.

ففعلت ما أفعله دائماً في ظروف كهذه: حدّقت إلى أصابعي.

قام إلى «طاولة السفرة» ثم عاد جالباً نمرة الهاتف الخلويّ.

قال لي: اتّصل أو عرّج علينا في أيّ وقت تشاء.

قلت له: سأجلب الصور بعد أسبوعين أو ثلاثة.

قال لي: بحياتك، انتبه لها.

نظرت إليه: طبعاً.

في الخارج وقف قربي بانتظار المصعد.

البوّابة في الجهة الأخرى من الممرّ مقفلة كما البارحة.

على البلاط، قربي، بقعة صفراء كبيرة.

ربّما وضعوا كيس نفايات هنا بانتظار وصول المصعد. ربّما نسوا أنّهم قبل أيام رموا بقايا الطبخ في كيس النفايات.

وصل المصعد. جذبت الباب نحوي. أدركت أنّه كان طوال الوقت يحدّق إلى الصور التي كنت أمسكها بيدي اليسرى مضمومة إلى الصحيفة القديمة وإلى خاصرتي.

دخلت. أغلق الباب خلفي. كان يودّعني عبر زجاج الباب مبتسماً، رافعاً يده، ومحدقاً إلى ما لا أعرف. فلقد توقّف عن التحديق إلى الصور، وارتفعت نظرته، حتى باتت مسدّدةً، كرأس رمح، إلى نقطة ثابتة في وسط صدري.

هل كان يحدّق إلى قلبي؟

هل كان يبحث عنّي؟ عن قلبي؟

كما أبحث أنا عن ابنه رالف. عن قلب ابنه رالف.

المصعد يهبط بي، ببطء. التفتّ وواجهت المرآة. ولم أكن لأفهم لماذا عيناي معتكرتان. فكأنّني كنت أبكي طوال الوقت.

طوال الدقائق الماضية.

طوال وقت الزيارة.

طوال حياتي.

في ذلك الخميس، وفور نزولي إلى غرفتي، قلت لنفسي إنّني لم أعد أقدر. وإنّ عليّ أن أتوقّف.

وضعت الصور والصحيفة القديمة فوق سطح الكومودينة وتمددت على السرير. كان الضوء يقع قربي. بعد لحظة سيتلاشى. إنّها الظهيرة. اللمبة تركتها مطفأة. هكذا أفضل. وإلاّ قتلني الصداع. وضعت أصابعي على جبهتي، تلمّست صدغي. كنت أحسّ النبض المتسارع تحت رؤوس أصابعي. كأنّ أصابع خفيّة تتحرك داخل جمجمتي وتنقف جبهتي من الداخل، نقفاً سريعاً متقطّعاً له صوت نبضات ساخنة.

أغمضت عينيّ. كنت أدوخ. انتقل الألم إلى عنقي وكتفي. تحوّل جسمي إلى جذع يابس. امتلأ ظهري بالعقد. عضلاتي كلّها باتت مشدودة، وانفتحت بئر عميقة وسط صدري.

في ما بعد تراجعت اليقظة.

وانزلقت إلى عتمة لزجة كالعرق الذي يسيل في جسمي.

سحبني التيّار الهادئ برفق. لكن راسي ظلّ ثقيلاً. وفكّرت أنّ الماء سيدخل عبر أنفي وفمي وأنني سوف أختنق.

بعد ذلك تلاشى دماغي.

حتى جاء رالف.

لم يطرق الباب. سمعت صوت المسامير وهي تخرج من الخشب. لم يكن الأمر كأنّ أحدهم ينتزعها من خشب الباب مستخدماً الشاكوش أو الكمّاشة. إذ لم تكن تُسمع أيّة ضجة. كان الأمر كأنّها تخرج من تلقاء نفسها. أو ربّما تحت تأثير مغنطيس قويّ جدّاً.

ثم تحرك الباب وظهر رالف من خلفه.

قبل أن يظهر فكّرت أنّها الجرذان. فطوال الأسابيع الماضية كنت أسمع خربشة خلف الباب الأسود. باب الغرفة الموصدة من حيث يخرج رالف الآن.

خرج رالف من الثقب الأسود وأضاء اللمبة.

– لا، لا، الضوء يقتلني. هتفت.

– أما زلت تعاني من الصداع؟

لم يكن يسألني، كان يحدّثني معتذراً بينما يطفئ اللمبة مجدّداً.

– لا أحد يُشفى من الصداع، قلت له.

– جميع الأمراض لها نهاية، قال لي.

كان يرتدي بنطلون جينز كحلي اللون، وقميصاً كاكياً قصير الكمّين. نظرت إلى حذائه. لم أجد الفردة اليسرى.

جلست القرفصاء على السرير، ودعوته للجلوس قربي.

– لا، ثيابي مبلّلة.

– غرفتي كلّها مبلّلة. إنها تصلح لأن تكون بئراً. اجلسْ.

لم يجلس. نظر حواليه كأنّه يبحث عن شيء. تأمّل المغسلة

والمرآة. في المرآة كان باب الغرفة السوداء مواربا.

نظر إليّ وسألني: «لماذا تجلس وحيداً هنا؟».

- «لماذا، لأن لا أحد معي»، هتفت، «هل كنت تعتقد أنني لن أعرف الجواب عن سؤال كهذا! هيا، إسألني سؤالاً آخر».

- إنّك تتحدّث مثل هامبتي دامبتي. قال مبتسماً.

- وأنت تتحدث مثل أليس . أجبته.

- هل تعرف ماذا يعني هذا؟ سألني.

نظرت إلى أصابعي. لاحظت أن نقطة الضوء كانت ماتزال ملتصقة بالأرض قرب سريري. كأنّ الشمس قد توقّفت عن الحركة في الخارج.

- سأقول لك ماذا يعني هذا.

- إنّي أعلم ماذا يعني. قاطعته قائلا.

استدار ومضى صوب الحمّام. نظر داخل كرسيّ المرحاض ثم عاد ووقف قبالتي.

- حين أرادت أليس أن تودّع هامبتي دامبتي قالت له أرجو أن أراك مجدّداً، وأن تتذكّرني، ولا تكون قد نسيتني.

- قلت لك إنّني أعرف، قاطعته مرّة أخرى.

«لا بأس. اعرفْ للمرّة الثانية إذن: هامبتي دامبتي أجاب أليس أنّه بالتأكيد لن يعرفها إذا رآها مرّة أخرى. لأنّها تشبه جميع النّاس. عينان، وأنف في الوسط، وفم تحت الأنف. دائماً الشكل ذاته. لو كان فمها في الأعلى مثلاً، أو عيناها على الجهة نفسها من الأنف...

عارضته أليس: لن يبدو ذلك لطيفا.

- انتظري حتى تجرّبي ذلك. قال هامبتي دامبتي ثم أغمض عينيه».

فتحت عيني. كان مايزال يقف قبالتي. رائحته ملح.

قال لي: طوال حياتي لم أقدر أن أضع فمي بين عينيّ. إنّ ذلك صعب جداً. ثم ما الفائدة؟

نظرت إلى أصابعي:

- لكن هامبتي دامبتي كان يشبه البيضة. ويضع كالتركيّ طربوشاً أحمر على رأسه. قلت له.

فضحك: ألم تنتبه حين نظرت في مرآة المصعد أنّك أنت أيضاً تشبه البيضة! وأمّا قصّة الطربوش فليست أمراً مهمّاً. أنت تفكّر دائماً في المرحوم جدّك. أليس كذلك؟ حسناً هذا أمر شبيه بطربوش على رأسك. فجدّك كان لا يخرج من البيت دون طربوش.

لم أسأله كيف يعرف كلّ هذه الأشياء عن جدّي. بدا ذلك طبيعياً تماماً. ربّما لأنّه لم يدخل عبر البوّابة التي أدخل منها عادةً.

قلت له: إنّك تلومني. إنّك تعاتبني. إنّك تكرهني. وكلّ ذلك لأنّني نظرت إلى الأرض حين التقيتك في مدخل «النهار».

ابتسم لي: كيف أقدر أن أكرهك وأنا لست موجوداً! ألم تدرك ذلك بعد؟ إنّي فقط شخص في منامك. مجرّد خيال.

- وهل تقدر عدسة الكاميرا أن تلتقط صوراً لشخص خياليّ، سألته، هل التقط أحدهم ذات يوم صورة لدون كيشوت مثلاً؟

قلت ذلك وأنا أرفع الصور الموضوعة على سطح الكومودينة في وجهه.

بقي هادئاً.

بل إنّ ابتسامته باتت أعرض.

كأنّه هو هامبتي دامبتي. كأنّ طرفي فمه سيلتقيان في مؤخّر رأسه فيما لو تابع الابتسام.

أجابني:

– أولاً لويس كارول التقط مجموعة ضخمة من الصور لفتاته أليس. ألا تعتقد أنّ أليس شخصية خياليّة؟

حسناً، وهناك من جهة أخرى جواب مختلف تماماً عن سؤالك.

لا بدّ أنك تعلم بعد هذه السنوات من العيش بين الكتب أنّ لكلّ سؤال واحد مجموعة هائلة من الأجوبة. وأنّها كلّها صحيحة. لكنّ الواحد لا يقتنع إلاّ بجواب واحد هو الجواب الذي كان يفكّر فيه حين طرح سؤاله.

أنت سألتني: هل التقط أحدهم صورة لشخصيّة خياليّة؟

حسناً، وكنت تفكّر في الجواب التالي: لا.

ولما كنت أزعم أنّي شخصية خياليّة، شخصية داخل منامك، فإنّ هذا يعني أنّ أحدهم لم يلتقط لي أية صورة.

وبالتالي فإذا كان بمقدورك، أن ترى وجهي في هذه الصور الموجودة بين يديك فإن هذا يعني أنّني كاذب وأنّك على حق. أليس كذلك؟».

– «إنّه الواقع. وأنا لا علاقة لي». أجبته.

– انظرْ إلى الصور إذن!

نظرت إلى الصور، لم أجد وجهه. رأيت وجوه أهله، رأيت وجوه عائلته وزوجته ورفاقه. ولم يكن وجهه في الصور.

– لكن... قلت مدهوشاً.

– انظرْ مرّة أخرى، قال لي، إنّه الواقع.

نظرت، في موضع وجهه رأيت وجهي.

كان ميلاد رالف في ٣ أيلول ١٩٥٠. إنّه من برجي: العذراء.

الصورة رقم – ١ – مؤرّخة: 20 Juil 1951. لا أعرف الفرنسية لكن بحوزتي قاموساً فرنسيّاً – عربيّاً. أفتحه على الصفحة ٦٩٢ فأقرأ:

تموز، يوليو: Juillet

حزيران، يونيو: Juin

إذن التاريخ هو ٢٠ تموز ١٩٥١. أي أنّ عمر رالف في هذه الصورة هو سنة واحدة إلاّ شهراً واحداً ونصف الشهر تقريباً.

إنّه يبدو كطفلة أنثى. عيناه واسعتان. شعره جعد، خصلات تنزل على جبهته. خصلات ناعمة وصغيرة ومعقوفة كأنّه اعتاد أن يلفّها حول إصبعه. وجهه أبيض. يرتدي ثوباً أبيض لا يصل إلى الركبتين. قدماه عاريتان من الجوارب. صندله من الجلد الأبيض الكثير الفتحات. الصندل ذو بكلة عند الكاحل، وحول البكلة تظهر خطوط جلد الطفل، وقد تغضّنت قليلاً.

إنّه يجلس مستقيم الظهر وساقاه ممدودتان أمامه. الساق اليسرى، الأقرب إلينا، مطويّة قليلاً كأنّه كان يستعدّ للجلوس متربّعاً في لحظة التقاط الصورة. ذراعه اليمنى يخفيها جسمه. أمّا الأخرى فنراها. أصابعه صغيرة لكنّها ليست نحيلة. يستند برؤوسها إلى الصندوق الكبير الذي يجلس فوقه. ظلّ هذه اليد يظهر تحتها

وحولها. لا نرى شيئاً خلفه. فقط فضاء رمادي. الصورة بالأبيض والأسود.

لا نعرف إلى أين ينظر. إنّه ينظر في اتجاهنا، في اتجاه عدسة المصوّر، لكنّه لا ينظر إلينا ولا ينظر إلى عدسة المصوِّر. أعرف هذا لأنّني أحدّق إلى عينيه فلا يبادلني النظرات كما تفعل لوحة الموناليزا مثلاً. هل ينظر إلى شيء يقع عن يميني أو يساري؟ أم هل نظرته مسدّدة إلى مكان محدّد، فوقي أو خلفي؟ لا أقدر أن أعرف. كأنّه ينظر دون أن ينظر. بؤبؤان أَسْوَدانِ كبيران. وفي مركز كلٍّ منهما نقطة بيضاء. نقطة ناصعة البياض.

الضوء الذي يستخدمه المصوِّر لإنارة الفضاء حول الطفل يبدو كأنّه يتسلّل إلى داخل شعره الجعد ويركد فوقه وحوله كغبار مضيء.

صورة رقم ٢: هذه الصورة لم تلتقط داخل استديو كما الأولى. بل على رصيف واسع في المدينة. الصورة بلا تاريخ. إنّه يمشي ممسكاً بيد أمّه فيما اليد الأخرى تمسك بطابة يضمّها إلى جسمه.

الصورة رقم ٣: الأب والأمّ مع رالف وأخته سيلفانا. سيلفانا في حضن الأمّ. رالف يجلس قرب الأب. الأب يحوطه بذراعه اليمنى.

شعر رالف مفروق إلى اليمين. إنّه يرتدي البنطلون القصير الذي يشبه تنّورة. في هذه الصورة أيضاً تظنّه فتاة. ساقاه ناعمتان. الضوء يلمع فوق سمرتهما. جواربه مطرّزة. ينظر إلينا بخجل وقد خفض رأسه. ابتسامة الأب ساحرة. إنّه يرتدي ربطة عنق وهناك منديل أبيض يظهر من جيب الجاكيتة العلوي. إنّه أنيق وضخم. رالف يلتصق به، ويده على الكنبة العريضة حيث يجلسون جميعاً. هناك سلسلة فضيّة تتدلّى من عنق رالف. يد الأب التي تلامسه تبدو مشبعة برقّة لامتناهية.

طبعاً العبارة الأخيرة عرضة للشك.

لكنّ هذا ما أراه.

الصورة رقم ٤. كما الصورة الثانية والثالثة، رالف بين الرابعة والخامسة من عمره. صورة عائليّة. هو والأب والأم وسيلفانا. لكن في هذه الصورة تظهر أيضاً خالة رالف. وجدّته. الخالة تجلس قريبهم. الجدّة على كنبة أخرى في الزاوية. صورة تبدو رماديّة. كأنّ الضوء القادم من الخارج واهن جداً، كأنّه الشتاء.

لكن ثوب الأمّ الصيفيّ يناقض هذه الفكرة. الأب والخالة على الكنبة وأمامهما الأمّ ورالف وسيلفانا. والجدّة تنظر إلى الجميع من زاويتها وتبتسم.

الخالة تغضّ عينيها وتدخّن سيجارة. في لحظة التقاط الصورة يبدو واضحاً أنّها كانت تأخذ نفساً من سيجارتها. إنّها جميلة جدّاً.

رالف يقف أمام الأب تماماً. والأمّ تجلس قربه على مقعد منخفض. سيلفانا أمام رالف. ورالف يضع يده حولها وهي تبتسم. الأب ينظر جانبياً إلى رالف أمّا رالف فينظر إلينا، مثل أمّه، مبتسماً.

هذه الصورة تمّ التقاطها بعد لحظة ضحك عارمة. إنك ترى السعادة طافحة من وجوههم.

وتلاحظ أيضاً شيئين: نظرة الأب إلى رالف. والطريقة المتألّقة التي تمسك بها الخالة بسيجارتها. إنّها تضمّ السيجارة بين الاصبعين الثانية والثالثة. وحين تضع السيجارة بين شفتيها فإنّ إصبعيها هما أيضاً تلامسان شفتيها برأسيهما. كأنّها لا تجذب نفساً إلى داخل صدرها من السيجارة فقط، ولكن من اصبعيها أيضاً، ومن جسدها نفسه.

كأنّها تحاول أن تجذب جسمها إلى داخلها.

بينها وبين الأب مسافة، وهناك ساعة ناعمة تزيّن معصمها. وشعرها أسود قصير. لا تشبه أختها، أي أم رالف، ويبدو جسمها مرتّباً.

عيناها مغضيتان. ترتدي تنّورة وبلوزة تظهر عنقها وأعلى صدرها. وفوق البلوزة ترتدي جاكيت صيفيّة. التنّورة والبلوزة والجاكيت من قماشة واحدة ولون واحد. خدّها غائر إلى الداخل قليلاً لأنّها تجذب نفساً من السيجارة.

دخان السيجارة بالكاد نراه، نقطة غائمة.

يدها اليمنى على ساقها اليمنى. إنّها تضع هذه الساق فوق الساق الأخرى.

ليست نحيلة. تفكّر أنّها تشدّ أطرافها إلى نقطة في بطنها.

في ما بعد انتحرت.

على قفا الصورة:

Photo GHANDOUR
RUE MAR MITR ACHRAFIE

بلا تاريخ. أيضاً بالأبيض والأسود.

الصورة رقم ٥، صورة لرالف ابن الستّة أعوام. إنّه يرتدي زيّاً يشبه زيّ البحّارة. بأوسمة على الصدر وأربعة أزرار هي أزرار الجاكيتة البحريّة. الأزرار في صفّين. تصنع زوايا مربّع خياليّ يقع وسط صدره تماماً. هناك حزام من القماش حول خصره. الزيّ أبيض اللّون. ذراعاه مسبلتان عن جانبيه. وقفة استعداد. إنّه يقول لنا: أنا قويّ وكبير.

ونحن نفكّر: الذي يلتقط الصورة هو بالتأكيد والده.

ورالف لا يقول لنا شيئاً، إنّه فقط يقول إنّه قوي وكبير للرجل الذي يصوّره.

– أنا قوي وكبير مثلك. تقريباً.

في الصور ٦، ٧، ٨، ٩ رالف يلعب، أو يتنزه. في الصور ٦، ٧

يلعب مرّة مع سيلفانا، في ضهور الشوير راكبين على ظهر حصان خشبيّ، وفي المرّة الثانية يلعب وحيداً في بيروت على ظهر حصان حقيقيّ. في الصورتين تشبه ابتسامته التكشيرة. لماذا؟ لا نعلم، ربما هي الشمس مرّة أخرى.

يضم أخته من الخلف وتظهر التلال في خلفيّة الصورة. أخته تبدو خائفة من العلوّ. على قفا الصورة كُتبت كلمات بالفرنسية بينها اسمه واسم أخته وتحت هذه الكلمات طُبع هذا الختم:

PHOTO CONTAX

DHOUR EL CHOUEIR

في الصورة ٧ حيث يمتطي حصاناً حقيقيّاً، نرى أنّه يمسك برسن الحصان، وكالعادة يرتدي بنطلوناً قصيراً. لقد كبر، وبات أطول قامة، ولم تعد ملامحه أنثويّة.

لقد بلغ الثامنة من عمره على أغلب الظن. وعلى قفا هذه الصورة نقرأ: ستوديو رويال

تجاه سينما متروبول تلفون ٤٤٨٧١

STUDIO ROYAL

Près Ciné Empire - Beyrouth

Tel. 44871

ألاحظ أنّ رقم الهاتف مكوّن من خمسة أرقام لا ستّة.

في الصورتين ٨ و٩ رالف يتنزّه مع أخته سيلفانا بصحبة والدهما. الصورتان التقطتا في منطقة الحمّام العسكريّ. الأب يرتدي دائماً بذلة وربطة عنق. والمنديل الذي يبرز من جيب الجاكيتة العلوي يتبدّل لونه تبعاً لتبدّل لون الجاكيتة. طبعاً في هذه الصور لا نرى إلاّ لونين: كلّ ما هو فاتح لونه أبيض، أمّا الغامق فأسود.

ونرى أيضاً الكثير من اللون الرماديّ.

هناك بركة للسباحة وهناك مبنى كبير. هناك شارع وكومة

صخور. هناك سيّارات قديمة الطراز. آنذاك لم تكن قديمة طبعاً. هناك أشجار. هناك سماء وأرض. ورالف في البنطلون القصير الذي لم يعد يشبه تنّورة.

بات طويلاً. رأسه يكاد يصل حتى صدر الأب. الأب الطويل جداً. وأخته قربه، ترتدي تنّورة قصيرة وتبتسم. دائماً تستقرّ يد الأب فوق كتف رالف أو مرفقه أو رأسه. وفي الصور التي تجمعه ووالده يبدو رالف هادئ القسمات ومنفرج الأسارير. إنّه يبتسم.

كما في تلك الصورة، في الزيّ الذي يشبه زيّ البحّارة:

– إنّي أبتسم، إنّي قويّ، إنّي كبير. مثلك.

كأنّه يتصوّر من أجل أبيه فقط.

الصورة رقم ١٠: هذه الصورة تسحرني تماماً. وكما في تلك الصورة حيث العائلة مجتمعة مع الخالة والجدّة، فإنّ هذه الصورة تم التقاطها في داخل بيت الخالة.

– خالتي لودي، قالت لي سيلفانا بحزن.

هذه الصورة لرالف ووالده، وحيدين في بهو تضيئه شمس الظهيرة أو ما بعد الظهيرة بقليل، تضع الناظر إليها في جوٍّ من الدعة التي لا تشبه شيئا من هذا العالم. كأنّها صورة من منام.

لكن كيف أصف هذا؟

الأب يجلس على كنبة. إنّه يرتدي بذلة سوداء ويضع ساقه اليسرى فوق اليمنى. الكنبة واطئة. يبدو كأنّه يسترخي فوقها في قيلولةٍ بعد وجبة غذاء. يداه مضمومتان فوق بطنه. رأسه يميل إلى الأمام وذقنه يستقرّ على صدره رغم ربطة العنق المعقودة. شعره أبيض، مردود إلى الخلف. ربما ليس أبيض. فالضوء القويّ الداخل عبر الزجاج الذي خلفه قد يخدعنا.

عبر الزجاج لا تظهر الشرفة. أمّا الحافة العليا للدرابزين فتتألّق

في الضوء الشتائي الباهر. بعد الدرابزين تظهر بعض البيوت. والبيت الأقرب يغرق في ضوء يشبه ندف الثلج. وعلى جدار من جدرانه يرتسم ظلّ الإفريز الذي يحمي مدخله، من الشمس صيفاً، ومن المطر شتاءً.

كأنّني أتفرّج على لوحة لإدوارد هوبر. وزاوية انحدار الظلّ تخبرني أنّ الوقت قد تجاوز الظهيرة بقليل.

إلى يمين الأب، على بعد شبر واحد يجلس رالف. ولأنّ الكنبة عريضة ومنخفضة، فإنّه ينزلق، كأنّه ينام، مسنداً رأسه فقط إلى ظهر الكنبة. يرتدي بنطلوناً وكنزة صوفيّة. تحت الكنزة تظهر ياقة قميص. وهو يميل بعيداً عن أبيه بينما ينظر إليه مبتسماً؛ فمه ينفرج، ووجهه يضحك.

لماذا يضحك رالف هكذا؟

ألأنّ والده نائم، أم لأنّه يتظاهر بالنّوم؟

أحدّق جيّداً فأرى طيف ابتسامة على وجه الأب. إنّهما يلعبان. الأب يلاعب الابن.

إلى يسار الأب، على بعد نصف متر، توجد طاولة صغيرة. فوق الطاولة منفضة. ظِلّ المنفضة مرسوم فوق سطح الطاولة. منفضة زجاجيّة نظيفة وكبيرة.

آنذاك كان رالف في الحادية عشرة من عمره. وخالته كانت ماتزال على قيد الحياة. لكن أين أعقاب السجائر؟

في هذه الصورة يبدو الأب نسخة طبق الأصل عن مارلون براندو في دور العرّاب العجوز الذي يسقي الشتلات الخضراء في حديقة بيته بينما يلاعب حفيده الصغير.

رالف ينظر إليه. يبتسم ضاحكاً كطفل. إنّه ليس فقط والده، لكنّه أيضاً كلّ شيء. إنّه الشيء الذي يعطي للأشياء معناها.

إنّه الرقّة والقوّة في آن معاً.

لكن كيف أصف سحر هذه الصورة؟

ربّما أستطيع ذلك بهذه العبارة: إنّ الظلّ المرسوم على جدار البيت البعيد- والذي نبصره عبر زجاج البوّابة العالية - لا تصنعه الشمس. إنّ ذلك الظلّ ليس موجوداً. إنّنا نراه لكنّه ليس حقيقيّاً. وفي اللحظة التي يفتح فيها الأب عينيه ويتوقّف عن التظاهر بالنوم، فإنّ ذلك الظلّ يتلاشى فوراً. ومعه يتلاشى الضوء الراكد في البهو كأنّه ماء. ومعه أيضاً تتلاشى كلّ تلك الدعة. والهدوء والسكينة والطمأنينة.

ونحن نعرف ذلك فجأة. كأنّنا نستيقظ للتوّ من منام. ونتساءل هل يعرف رالف أيضاً؟

وماذا لو عرف؟

الصورتان رقم ١١ و١٢. كما الصور السابقة، هاتان الصورتان أيضاً بالأبيض والأسود. ولقدالتقطتا في مناسبة واحدة: عشاء ذهبت العائلة لتناوله في مطعم نصر في محلّة الروشة.

الأب والأم ورالف وسيلفانا. وأيضاً: منى؛ إنها البنت الثانية في عائلة إبراهيم رزق الله بعد سيلفانا، والآن يظهر رالف للمرّة الأولى واضعاً نظّارات طبيّة، ومزيّناً معصمه بساعة ذات رباط جلديّ أسود يشبه إطار نظّارتيه.

إنّهم يلتفّون حول طاولة موضوعة فوق شرفة المطعم الواسعة. شرفة تطلّ على البحر، وعلى صخرة الروشة. جانب الطاولة يلاصق الدرابزين. الأب يجلس قبالة الابن.

رالف يضع يده اليسرى على الدرابزين وينظر إلى الكاميرا من وراء نظّارتيه. شعره مفروق إلى اليمين وياقة قميصه مفكوكة. إلى يمينه تجلس الأمّ. وخلفهما طاولات أخرى وزبائن آخرون.

يظهر من الأب بروفيله الأيسر فقط. هو أيضاً يضع يداً على الدرابزين. إنّها يده اليمنى. يسند مرفقها كما يفعل رالف إلى حافّة

الدرابزين. وبدوره ينظر ملتفتاً نحو الكاميرا. قربه، تجلس سيلفانا، قبالة أمّها. أمّا منى فتقف على مقربة وهي تنظر إلى الأطباق الكثيرة المصفوفة فوق طاولة الطعام.

الأطباق أكثرها مصنوع من الفخّار. فيها أنواع المازة. متبّل الحمّص أو بابا غنّوج. تبّولة، وشنكليش مع بندورة وبصل. وهناك إبريق زجاجيّ كبير مليء بالماء. ووعاء معدنيّ لمكعّبات الثلج. الأب والأم يشربان العرق الزحلاويّ من الكؤوس التقليديّة.

أمام الأب علبة سجائر. الأم تمسك بسيجارة بين إصبعيها. في الصورة الأولى تقضم سيلفانا قرصاً من الكبّة المقليّة بالزيت النباتيّ.

- كنت أحبّها كثيراً، قالت لي، ثم أردفت:

- كنّا نذهب دائماً إلى المطاعم على الروشة.

في الصورة الثانية رالف يضع نظارتيه على الطاولة أمامه، بين صحنه وبين ملقط الثلج. إنّه ينظر بعيداً. لا يظهر البحر، ولا تظهر الصخرة، لأنّه وقت العشاء. فقط الدرابزين الذي يحمي الطاولات والزبائن من السقوط في البحر عن علوّ يقارب الخمسة والأربعين متراً. وبعد الدرابزين عتمة كثيفة سوداء.

إلى هذه الجهة من الدرابزين اللون أبيض: ثوب الأم، قميص الأب القصير الكمّين، فستان منى وتنّورة سيلفانا، شراشف الطاولات، كؤوس العرق، الفضاء المضاء بالنيون الحليبي اللّون.

وإلى الجهة الأخرى، اللّيل.

وفي صمت غرفتي أنظر إلى الصورتين فأسمع ضجّة البحر كأنّه تحتي وأرى اللّيل يعلو كالموج فوق الدرابزين ثم يغمر الطاولات.

الصورة رقم ١٣. رالف في السابعة عشرة من عمره. للمرّة الأولى في حياته يرتدي بذلة سوداء مع ربطة عنق.

– تصوّرها من أجل الدخول إلى الكلّيّة الحربيّة. ولذلك لم يضع نظارتيه. قالت سيلفانا.

ذراعاه مسبلتان. يبدو طويلاً في الثياب السوداء. يجمع يديه في قبضتين غير مشدودتين. شعره أسود كالفحم. مصفّف بعناية. ياقة قميصه البيضاء مكويّة جيّداً.

على الفور يلفت نظري صفّا الأزرار. كما في زيّ البحارة في تلك الصورة القديمة. هذه الجاكيتة أيضاً مزوّدة بأربعة أزرار فقط تصنع مربعاً خيالياً في منطقة بطنه.

ما الّذي تبدّل؟

بات أطول، تغيّر لون البذلة من أبيض إلى أسود. تخلّى عن الحزام القماشي، لأجل حزام مصنوع من الجلد. بلى، أنهى دراسته الثانويّة أيضاً.

أُخرجُ من المغلف صورته القديمة. الصورة رقم ٥. أُقارن بين الصورتين. بين زيّ البحّارة والبذلة السوداء.

وأفكّر أنّه يبدو في الصورة الأولى أقوى منه في الصورة الثانية.

أقول: رالف ابن الستّة أعوام أقوى من رالف ابن السابعة عشرة. أعرف هذا من مقارنة الوجهين فقط. ومن النظرة في العينين.

على قفا الصورة الجديدة، الصورة رقم ١٣، أقرأ ما يلي: رالف رزق اللّه، ١٧. وتحتها ختم مكوّن من كلمتين داخل مستطيل: الشعبة الثالثة.

قال لي والده: رفضوه بسبب من ضعف نظره، هكذا قالوا له.

وصمت هنيهة ثم تابع: ولأنّ والده قوميّ.

الصورة رقم ١٤. في بيت قديم. ربّما داخل قصر موسى أو قصر بيت الدِّين. أيضاً عمره ١٧ سنة. إنّه يقف مفتوح الساقين. لكنّ قدمه اليمنى تتقدّم اليسرى. كأنّه لا يعرف كيف يقف. شعره

الأسود المفروق إلى اليمين غير مرتّب. وحاجباه كثيفان ويتّصلان في عقدة سوداء بين عينيه.

يرتدي ثياباً شتويّة. أُحسُّ قطرات العرق تنساب فوق فقرات سلسلة ظهره. في كتاب «طباع الحيوان» المنسوب إلى أرسطو قرأت أنّ الرّجل الذي يتّصل حاجباه في عقدة سوداء بين عينيه يكون خجولاً.

الصورتان رقم ١٥ و١٦. رالف في فرنسا. هاتان الصورتان أرسلهما من هناك إلى أهله في لبنان خلال عام ١٩٧٤. آنذاك كان يدرس في جامعة السوربون.

في الصورتين لم أعرفه إلاّ لأسباب شخصيّة جدّاً. كأنّه قد غدا فجأة شخصاً آخر. لحيته متشابكة. سوداء وطويلة. وشعره الأسود الجعد هو أيضاً طال حتى وصل إلى كتفيه. سالفاه يتصلان بذقنه، وشارباه كثيفان.

عرفته لأنّني قبل سنة واحدة تركت لحيتي تطول، وشعري أيضاً، حتى غدوت أرى وجهاً ليس وجهي كلّما نظرت في المرآة.

تأمّلت الصورتين بإمعان. شعره المفروق إلى اليمين يتهدّل نحو كتفه متموِّجاً. في الصورة الأولى والثانية يرتدي الثياب ذاتها. بنطلون رماديّ طويل وواسع تحت الركبتين كبناطيل تلك الأيّام. وقميص مقلّم لا تظهر منه إلاّ ياقته المفتوحة إذ تغطّيه كنزة من الصوف الأبيض. وفوق الكنزة معطف واقٍ من المطر. شعره الطويل ينزل تحت ياقة المعطف. وأنفه يبدو أبيض وكبيراً وسط وجهه الذي كاد الشعر أن يغطّيه تماماً.

في الصورة رقم ١٥ عيناه منكمشتان. لأنّه لا يضع نظارات ربما. خلفه شاحنة صغيرة. ظلّه إلى يساره. أصابعه بيضاء. هناك سحابة ضوء معلّقة فوق شعره المنحدر حسب الفرق نحو كتفه

اليمنى. ضوء باريسيّ شفّاف ومتألّق. ضوء بارد وكئيب. أمّا هو فيبتسم.

في الصورة رقم ١٦ هناك شخص آخر يقف قربه. شخص في معطف رماديّ ثقيل وضخم. إنّهما يقفان بين جذوع أشجار طويلة. في الخلفيّة يظهر بناءان يتّصلان في زاوية قائمة. الشمس ترسم ظلاً لشجرة يابسة وكثيرة الأغصان فوق جدار أحد البناءين. الأرض أيضاً تقطعها خطوط عريضة ومستقيمة ليست إلاّ ظلال جذوع أشجار.

البناءان من طراز واحد: نوافذ مستطيلة كثيرة. كلّها طويلة ومقفلة. وحجارة رماديّة معرّقة بخطوط بيضاء. هل هي مبانٍ خاصّة بالطلاّب؟

أبحث عن ظلّ رالف فلا أجده على الأرض. أكتشف أنّ ظلّه يضيع ضمن ظلّ شجرة ثخينة وغير مرئيّة في الصورة، وأنّ ظلّ هذه الشجرة الخفيّة يجري كجدول من المياه المعتمة، في موازاة ظلال الأشجار الأخرى حتى يصل إلى جدار المبنى البعيد، فيتلاشى كأنّه لم يكن.

أشعل سيجارة ثم أنظر إلى الصورتين مرّة أخرى. بلى، هذا رالف، لم يعد وجهه غريباً.

خلال السنة الماضية استغرق الأمر قرابة الثلاثة أيّام كي أعتاد وجهي وقد غطّاه الشعر.

الصورة رقم ١٧. أيضاً من فرنسا. رالف في حديقة الحيوانات. يرتدي بنطلوناً أسود وكنزة سوداء والمعطف المذكور في الصورتين ١٥ و١٦. شعره ولحيته كما هما. لكنّه يضع نظارات طبيّة. خلفه سور من قضبان الخشب، علوّه متر ونصف المتر تقريباً. عبر القضبان يظهر دبّ ضخم بنيّ اللّون.

إنّه طويل جداً. بمقدوره أن يتسلّق السور وأن يلتهم رالف والرَّجل الذي يلتقط هذه الصورة الفوتغرافية. نعرف أنّه لم يفعل ذلك.

هذه الصورة مكبوسة إلى بطاقة بريديّة تُظهر مدخل الحديقة. على قفا البطاقة كتب رالف لأهله: «هناك ٩٥٠ ألف زائر يأتون إلى هذه الحديقة سنوياً. أي قرابة المليون. إنّنا ندرس طبائع الدببة. هكذا نفهم الإنسان أكثر».

في الزاوية العليا للبطاقة أقرأ: «Parc Zoologique de Paris 53 avenue de saint- Maurice 75012, Paris, France».

قالت لي سيلفانا: كانوا في السوربون يدرسون مادّة عن الحيوانات وتصرّفاتها، فسافر مع زملاء له إلى تورنتو في كندا لمشاهدة الدببة القطبية.

الصورة رقم ١٨. من تورنتو. تشبه الأولى. رالف وخلفه دبّ. هذا الدبّ أبيض اللّون، وهو يسبح في مياه خضراء خلف لوح من الزجاج. رالف لا يضع نظّارات. في المعطف ذاته. لكنّه يلفّ شالاً صوفياً حول عنقه. ويبدو أنّه قد شذّب لحيته.

البطاقة البريدية المكبوسة إلى هذه الصورة تُظهر سيّارة رُسم عليها شعار الحديقة. نافذة السيّارة مفتوحة والسائق يمدّ يده نحو دبّ أسود يقف على قائمتيه الخلفيّتين رافعاً رأسه. خلف السيّارة تظهر مساحات شاسعة من الخضرة.

على قفا البطاقة أقرأ أوّلاً العنوان:

“Metropolitan Toronto Zoo
P.O.Box 280, West Hill, Ontario, Mis 3A1, Canada”.

وتحت العنوان: «منذ يومين ونحن نراقب الدبّ القطبي. تمنيت لو كنتم هنا. خصوصاً أنت يا أبي. رالف».

قالت لي سيلفانا: «عموماً كان يكتب لنا بالفرنسية. جميع رسائله لنا بالفرنسية. إلاّ المكتوب على هذه البطاقات».

حين فكّرت في الأمر قليلاً، قلت لنفسي: «لقد فعل ذلك كي لا يفهم زملاؤه الفرنسيون ما يكتبه. فهو في أغلب الظنّ كان يكتب على هذه البطاقات في كافيتيريا الحديقة، وهو جالس معهم، ثم يرسلها على الفور».

الصورة رقم ١٩. «هذه صورته في إكليله»، قال لي الأب. «إنّه يدلّع أمّه»، أردف قائلاً.

راحت اللحية. ظلّ شعره كثيفاً لكنّه لم يعد طويلاً جدّاً. سالفاه طويلان. قميصه أبيض. نرى الجانب الأيسر من وجهه. وطرف النظارات. ويده اليمنى المرتفعة التي تتلمّس العقد الذي يزيّن عنق أمّه. الأمّ مركز الصورة. تبتسم. وجهها متعب. شعرها مرتّب ينزل خلف أذنيها حتى الكتفين. في عمق الصورة، الأب يخفيه رالف، وظلال الكنيسة. نعرفه من شعره الأبيض الجعد. أمّا وجهه فغير مرئيّ. ورالف يبدو ثقيل الحركة.

قالت لي سيلفانا: «رجع من فرنسا وتزوّج ثم بدأت الحرب».

أعود إلى الصور السابقة. أتفرّج مليّاً على الصورة في حديقة حيوانات باريس. وعلى البطاقات البريديّة. أعرف أنّني قارنت بين رالف وبين الدبّ دون أن أنتبه. لم أكتشف هذه الحقيقة إلاّ في اللحظة التي كتبت فيها: «رالف يبدو ثقيل الحركة».

انظر إلى الدبّ البنّيّ مرّة أخرى. كأنّ جاذبيّة الأرض لا تسمح له برفع رأسه ولو مليمترات قليلة. كأنّه يشرف على الموت تعباً كلّما حاول أن يتقدّم خطوة. الدبّ الثقيل الحركة.

الصورة رقم ٢٠. إنّه يتناول الطعام مع ثلاثة أصدقاء له. أيضاً في مطعم نصر. لكن ليس على الشرفة. بل في الصالة. الأربعة

يرفعون كؤوس العرق وينظرون صوب الكاميرا. رالف يضع ساقاً فوق أخرى. يشبه صورته في الإكليل: نظارات، وشاربان، وذقن حليق، وشعر كثيف مفروق إلى اليمين. سالفاه طويلان.

وجهه كالقناع. الآخرون يبتسمون. وواحد منهم ينظر إليه. من هو هذا؟ إنّه يشبه رجل المعطف الضخم في تلك الصورة بين جذوع الأشجار. انظر جيّداً: لا، هذا شخص آخر.

لماذا يبدو وجه رالف كالقناع؟ لأنّه لا يخبرنا شيئاً، لأنّه ليس حقّاً في الصورة. كأنّه ليس معهم، كأنّه في مكان آخر. لكنّه معهم، وهو أيضاً يرفع كأس العرق في نخب! بلى، ربما هو في المكان نفسه، داخل مطعم نصر، وفي الصورة، لكنّه من جهة أخرى في زمانٍ آخر. زمان مختلف. زمان قديم. ربما كان يتذكّر أيّاماً بعيدة. وجلسات أخرى في هذا المكان ذاته. على بعد خطوات فقط. على الشرفة. قبل الزواج، وقبل الجامعة. في أيّام الدراسة الابتدائيّة والمتوسّطة. أيّام كان يجلس إلى طاولة مليئة بصحون المتبّلات، فيأتي النادل الرشيق ويسكب في كوبه العصير البارد ويمسح الطاولة بفوطة ثم يملأ الوعاء المعدنيّ بمكعّبات الثلج، بينما الأب يعدّ كأسين من العرق، والأمّ تشعل سيجارتها.

الصورة رقم ٢١. داخل مكتب. نظّارات طبّيّة جديدة، زجاجها سميك. عيناه كبيرتان خلف الزجاج. بات نظره أضعف منه في السابق. شارباه كثيفان. قميص أبيض. جاكيت بيضاء. ليست جاكيت رسميّة. وتشبه ما يرتديه لاعبو الاحتياط في فرق كرة القدم لحمايتهم من نزلة برد مفاجئة.

الصورة رقم ٢٢. من الفترة الزمنيّة ذاتها على أغلب الظنّ. أيضاً داخل مكتب. يقرأ في كتاب. وجهه غير مرئيّ.

عن هاتين الصورتين الأخيرتين قالت لي سيلفانا إنّهما التقطتا

في مكتب من مكاتب صحيفة: Le Réveil.

إنّها صحيفة لبنانية كانت تصدر باللّغة الفرنسية أنذاك. أستخدم القاموس فاكتشف أنّ الكلمة «Réveil» معناها «اليقظة».

أمامي العدد رقم ٢٠٨٩ من الصحيفة المذكورة. إنّه العدد الصادر صباح الاثنين ٢١ شباط ١٩٨٣. ومن الصفحة الأخيرة أفهم أنّ مباني الصحيفة كانت تقع في حرش تابت – سنّ الفيل. المدير يدعى ريمون ضو. رقم الهاتف: «٨٩٥٧٠١». إنّه مكوّن من ستّة أرقام، كما أرقام الهاتف المتداولة حالياً.

أفتح الصحيفة على الصفحة الخامسة. مقابلة مع الدكتور رالف رزق اللّه والرسّام جورج خوري المعروف بـ:«جاد». كانا يعملان على مسلسل من الرسوم يروي سيرة حياة سيغموند فرويد. هكذا فهمت. وفكّرت أنّ عليّ الاستعانة بشخص يقرأ اللّغة الفرنسيّة.

تفرّجت على صورة رالف. هناك صورة له، وأخرى لجورج خوري. في المكتب ذاته. في الخلف جدار مقطّع إلى مستطيلات صغيرة. بالقرب طاولة مزدحمة بالأوراق. وبين الأوراق منفضة وقدّاحة وعلبة الدخان. هذه الصورة الأولى التي أرى فيها رالف يدخّن سيجارة. إنّه يمسك بها تماماً كما تفعل خالته. يثبّتها بين رأسي إصبعيه الأولى والثانية ويترك أصابعه تتدلّى كأنّها ستقع أرضاً. هناك سحابة بخار تتصاعد من فنجان قهوة بلاستيكي.

أغمض عينيّ. أستعيد صورة الخالة وهي تجذب نفساً عميقاً من سيجارتها. أقوم وأشعل سيجارة. أنظر إلى صورة رالف مرّة أخرى. ألاحظ وجود حقيبة جلديّة ذات حزام قرب مرفقه. الحزام يلامس جانب فنجان القهوة. ولأنّ الفنجان شبه شفّاف فإنّ منسوب السائل فيه مرئيّ بوضوح: حين التقط له المصوّر تلك الصورة كان رالف قد شرب نصف الفنجان فقط.

سؤال: هل هذه الحقيبة له؟

وأتذكّر: حين كنت أراه في مكتب «الملحق» في مبنى صحيفة

«النهار» ألم يكن يحمل حقيبة تشبهها؟ وأتساءل: هل تعيش الحقائب خمسة عشر عاماً، ولا تبلى؟ وهل جاء بهذه الحقيبة بالذّات من فرنسا؟

وأفكّر أنّ رأسي يؤلمني وأنّ هذه الأسئلة لا معنى لها، وأنّها بلا قيمة.

تبقى صورتان ملوّنتان. إنّما جديدتان. يبدو واضحاً أنّ الصورتين التقطتا خلال جلسة واحدة.

المكان: البهو في بيت رالف.

الزمان: قرابة الظهيرة.

الأشخاص: رالف وزوجته وأولاده. بالإضافة إلى أخيه وزوجته.

إنّه رالف الذي أعرفه. مع شيب يَخِطُّ شعره، ونحول في وجهه، ورقّة في ملامحه. وبلا نظّارات.

- «منذ سنوات استبدل نظارتيه بالعدسات اللاصقة»، قالت لي سيلفانا.

خارج الشبّاك المفتوح، يغمر ضوء الشمس أغصان شجرة عارية من أوراقها. على الكنبة الطويلة تجلس حلا، وحولها الأولاد الثلاثة. رالف خلفهم، ينحني فوق ظهر الكنبة، تاركاً النافذة وراءه، وينظر معهم صوب الكاميرا. ذراعه تلامس شعر حلا الطويل.

في الصورة الأخرى الشبّاك مغلق. ضوء الشمس مايزال قوياً. يظهر رونالد، أخو رالف، وبين يديه دفتر. رالف على كنبة منفردة. يميل على ركبتيه، يتكوّم حول نفسه. إنّه يتابع حديث شخص لا يظهر في الصورة. ربما هي زوجته.

في وسط البهو طاولة خشبية. فوق سطحها لوح من الزجاج وشرشف أبيض تزيّنه التخاريم. فوق الشرشف تتوزّع منافض وأوعية زجاجيّة، بعضها مليء بالسكاكر الملوّنة. المنافض طافحة بأعقاب السجائر.

لماذا أقفلوا النافذة؟

أنظر إلى ثيابهم. رالف في بنطلون مخمل رماديّ اللون. رونالد في بنطلون جينز كحليّ. الاثنان يرتديان الجاكيت. إنّه الشتاء! لكنّ ضوء الشمس القويّ خدعني للوهلة الأولى. وكذلك النافذة المفتوحة. فلم أنتبه إلى الملابس. وقلت إنّه الصيف.

لكن إذا كان الفصل شتاءً فلماذا كانت النافذة مفتوحة في الصورة الأولى؟

وأنا في الحقيقة لا أعرف أيّةً من الصورتين قد تمّ التقاطها أوّلاً ولا أقدر إلاّ أن أتكهّن. فأتكهّن: بالتأكيد لم يكن الفصل صيفاً. يكفي أن أنظر إلى جاكيت رونالد الصوفيّة كي أدرك هذا. وهكذا لا يعود أمامي إلاّ أن ارى رالف جالساً على الكنبة في الصورة التي تمّ التقاطها أوّلاً، وهو يتكوّم على نفسه، ويصغي إلى الكلام الذي يقال، ويشعر أنّه بحاجة إلى هواء نقيّ. هواء الخارج.

فقط بعض الهواء.

فينهض ويذهب إلى النافذة ويفتحها. وخلال ذلك يكون رونالد قد طلب من الأولاد أن يجتمعوا حول أمّهم على الكنبة الطويلة.

أخذ رالف نفساً طويلاً، كان الهواء منعشاً. نادى عليه أخوه من الخلف كي يأتي إلى الكنبة، لأنّه يريد أن يلتقط صورة له مع زوجته وأولاده.

وكان متعباً. فاختار أن يستدير، وأن ينحني من حيث يقف فيسند مرفقيه إلى ظهر الكنبة. ثمّ رسم ابتسامة على وجهه.

إنّها الابتسامة التي أراها الآن أمامي. بعد أن مات. وأراها كي أتذكّر الصور الأولى. كصورته راكباً على ظهر الحصان الخشبيّ خلف أخته، في ضهور الشوير.

النظرة ذاتها. الابتسامة ذاتها.

وأخيراً أفهم: كي أصف رالف عليّ أن أتمكّن من وصف هذه الابتسامة. ولكي أفهمه فإن عليّ أوّلاً أن أفهم هل هي ابتسامة أصلاً؟

أقـوم وأنظر إلى المرآة المثـبـتـة فـوق المغـسلة وأبتـسم. وأتابع الابتـسـام حـتى تؤلمني عضـلات وجـهي. ثم أمـضـي إلى السـرير. أجلس على حافّته وأشعل سيجارة أخرى.

أمسك بها بين رأسي الإصبعين الأولى والثانية، وأتفرّج عليها.

ويصعد خيط الدخان مستقيماً ويدخل في عينيّ. فتدمعان.

هكذا انتهى يوم الجمعة بينما أتفرّج على الصور وأكتب عنها.

في داخل الكومودينة كنت قد وجدت مغلّفاً قديماً وضعت فيه صوراً لغالب هلسا* ولم ألبث أن نسيتها. إلى هذه الصور، أضفت الآن صور رالف كي لا تتعفّن في رطوبة الجوّ. ثم أعدت المغلّف إلى الكومودينة، وأحكمت إقفالها.

صباح اليوم التالي، وكان السبت الموافق في الثاني والعشرين من حزيران، قصدت مكتبة «يافث» كي أقرأ قليلاً عن الدّببة القطبيّة وطباعها.

وجدت المكتبة خالية. فقط طاولات وكراسيٍّ ورفوف كتب. وضوء الشمس العارم الذي يدخل عبر النوافذ العالية. والهواء البارد للمكيّف. والصمت العميق.

كأنّني في منام.

جمعت بعض الكتب وجلست في الزاوية.

لا صوت، لا أحد.

فتحت أوّلاً «موسوعة الحيوانات الثدييّة». رأيت صورة لسهل

---

* روائي أردنيّ. (١٩٣٢ - ١٩٨٩) عاش حياته متنقّلاً من منفى إلى آخر.

يغطّيه الثلج. دخل البرد إلى عظامي.

تخلّصت من صندالي ووضعت قدمي على الكرسيّ القريب. فقط لو أنّهم يسمحون لي بسيجارة. لكنّ التدخين ممنوع هنا. لولا هذا لاقتنعت أنّني ولا بدّ في منام.

الدبّ عموماً، بفصائله السبع، هو أشدّ المخلوقات الموجودة فوق الأرض وحدةً. والدبّ القطبيّ، على نحو خاصّ، يعيش حياته في وحدة لامتناهية. إنّه لا يقيم أيّة صلات مع بني جنسه. إلاّ التقاتل. حتّى القتال العدائيّ المتوحّش الذي يتميّز به، لا يلجأ إليه أبداً إلاّ كحلٍّ أخيرٍ. والصلة الوحيدة التي يقيمها مع الدببة تكون خلال موسم التزاوج القصير. يتبع الأنثى مستخدماً أنفه، يلاحق رائحتها حتى يصل إليها، يدور حولها، يتشمّم وجهها وجسمها وأعضاءها التناسلية، يقف على أطرافه الخلفية كي ترى طوله، يندفع نحوها، يدوران في حلقات، يدفعها فتدفعه، أحياناً يرتمي فوقها ويعضّ كتفها عضّات صغيرة للمداعبة، ثم يعتليها. يعانقها بأطرافه الأمامية، يشدّها إليه بمخلب من خمس أصابع، ولا يستغرق الأمر سوى نصف دقيقة. ثم يترنّح مبتعداً.

يمضي ثقيل الخطى فوق السهل الجليديّ. وحيث لا تكون قشرة الثلج قاسية، يترك خطى تشبه الخطى البشريّة. الآن عاد إلى وحدته.

هل كان خارجها خلال الدقيقتين الماضيتين؟

خارج وحدته؟

أم كان في النقطة الأعمق من قلبها؟

وها قد حلّ الشتاء القطبيّ. لم يعد بمقدوره أن يغوص في المحيط ليصطاد فقمة أو سمكة. لم يعد بمقدوره أن يتحرّك وسط هذه الرياح الهائلة.

وطوال أربعة شهور ستحلّ العتمة. والشمس لن ترمي شعاعها

على هذه الصحراء الشاسعة إلاّ بعد نهاية الشتاء.

يتسلّق الدبّ منحدراً قوياً. يغرز مخالبه في الجليد والثلج. يبدأ بالحفر. درجة الحرارة أربعون تحت الصفر. في الجهة الأخرى من هذا المنحدر تنخفض درجة الحرارة إلى خمسين درجة مئويّة تحت الصفر. بسبب من الرياح الشمالية.

لا يحفر إلاّ في منحدر قويّ خوفاً من تكدّس الثلوج فوق فوهة كهفه.

كهفه؟

بلى، البيت الذي يحفره لنفسه، البيت الذي سيعيش فيه حتى تعود أشعّة الشمس.

في الأرض المتجمّدة يحفر نفقاً يتجاوز طوله الخمسة أمتار. وفي نهاية هذا النفق، الذي قطر فوهته نصف متر تقريباً، سيوسع الدبّ لنفسه مطرحاً تقارب مساحته مترين مربّعين.

هنا يتكوّم حول نفسه، وينام.

تنزل درجة حرارة دمه من ٣٨ مئويّة إلى ٣٧ مئوية.

ينخفض معدّل نبض قلبه من ٧٠ نبضة في الدقيقة إلى ٣٥ نبضة. أي إلى النصف.

وطوال هذه الشهور من النوم لن يفرز جسده لا عرقاً ولا برازاً. وسيتغذّى جسمه من الشحوم التي تغذّى بها طوال الصيف. ولن يستهلك من الأوكسيجين إلاّ ثلث ما يستهلكه حين يكون مستيقظاً.

لو حصل انفجار بالقرب، فلن يستيقظ.

إلاّ إذا تسبّب الانفجار بارتفاع درجة الحرارة. فذلك قد يخدع الدبّ، ويجعله يعتقد أنّ الشتاء قد انتهى، وأنّ سطح المحيط قد تشقّق مجدّداً عن المياه الباردة حيث تسبح أسماك السلمون، وحيوانات الفقمة المليئة بالشحوم.

في نهاية الشتاء القطبيّ المعتم سترتفع درجة الحرارة إلى درجة

واحدة تحت الصفر. وعندئذ فقط سيشقّ الدبّ طريقه إلى فوهة النفق، وقد خسر قرابة العشرين بالمئة من وزنه.

إنّه طويل. عيناه صغيرتان. أذناه مدوّرتان وقصيرتان. عنقه طويل. ووجهه عريض. يتقدّم وظهره أعلى من رأسه. يتحرك بصعوبة. بعد شهور من النوم، لم تعد مفاصله مرنة على الإطلاق. كما أنّه جائع.

قبل بداية الشتاء كان يزن قرابة الألف كيلوغرام. والآن عليه أن يقطع مسافة يتجاوز طولها العشرة كيلومترات كي يصل إلى المحيط. حيث يتشقّق الجليد، حيث الطعام.

في موسوعة أخرى عن «قوانين التصرف عند الحيوانات» لفت انتباهي مقال طويل عن الأوّز البريّ. المقال دراسة جنسية. الكاتب يقترح «متوازيات» في «السلوك الجنسيّ» بين الأوّز البرّيّ وبين الإنسان.

أقرأ أيضاً مقالاً عن تجارب كونراد لورنز.

فجأة يبدأ الصداع.

أقوم واقفاً. أنتبه انني لا أنتعل شيئاً. أنظر حولي. لا أحد. أمشي حتّى النافذة المطلّة على البحر. أتفرّج على الزرقة المترامية. على الخطوط البيضاء التي تشبه الموج.

هناك غبار على البلاط، يلتصق بقدمي، يزعجني.

هل يشبه الغبار الثلج؟

هل ينمو فوق جسمي معطف من الفرو إذا رحلت إلى القطب الشمالي؟

وتذكّرت الشتاء الفائت.

كنت أصل ليلي بنهاري. ملتفّاً ببطّانيّتين صوفيّتين، وممدّداً تحت بطّانيّة ثالثة. أشرب الشاي وأدخّن، وآكل علب سردين وخبزاً،

وأشرب نبيذاً أيضاً، وأتساءل متى ينتهي البرد ومتى يحلّ الربيع.

وأحاول أن أنام قدر ما أستطيع، فيفاجئني الصداع على حين غرّة، وإذ يزيده البرد حدّةً، أتساءل لماذا لا أشتري لنفسي مسدّساً ضخماً، ولماذا لا أفجّر رأسي اللعين. كي يذهب الصداع عنّي.

عدت إلى الزاوية.

فتحت كتاباً آخر.

قبل سنوات وقعت الدول الست التالية اتفاقاً لحماية الدبّ القطبيّ: كندا، روسيا، السويد، النروج، الدانمارك، الولايات المتّحدة الأميركية.

حسب إحصاءات الخبراء عدد الدببة القطبيّة لا يتجاوز السبعة آلاف. إنّها فصيلة توشك على الانقراض.

لحمايتها حاول العلماء تعقّبها.

اكتشفوا أنّ تعقبها مستحيل.

لماذا؟

يتمّ عادة تعقّب آثار الحيوانات التي تعيش في المناطق القطبية بواسطة جهاز مزوّد بالأشعّة ما تحت الحمراء. فبهذه الأشعّة يتاح للجهاز المذكور أن يقوم بتصوير «الحرارة» وهكذا يُفترض أن يظهر الدبّ القطبي، الذي يتحرك وسط الثلج والجليد، كـ«بقعة ساخنة» على النسخة السالبة للفيلم. كما هي الحال مع الثعلب القطبيّ مثلاً.

لكنّ هذه العملية لم تنجح مع الدبّ القطبيّ. رغم الحساسية الفائقة للأجهزة التي تمّ استخدامها لم تظهر أيّة «بقعة ساخنة» على النسخة السالبة للفيلم رغم أنّ الجهاز كان موجّهاً على نحو مباشر إلى دبّ محجوز في حديقة الحيوانات.

كان الأمر غريباً جداً.

ثم ظهر السبب: بعد تجارب عديدة أجريت على عيّنات شعر

مستخرجة من فرو الدبّ القطبيّ، تبيّن أنّ هذه الفروة ليست فقط معطفاً واقياً من البرد. لأنّها قادرة أيضاً على التقاط أصغر وأدقّ إشعاع يبثّه جسم الدبّ بغية جمعه في «خصلٍ إشعاعية» يعاد ضخّها إلى داخل الجسم كـ«حرارة».

في الوقت نفسه تقوم هذه الفروة، بسبب من الخواصّ المميزة لشعيراتها البيضاء المذهّبة، بعزل الجسم عن محيطه عزلاً تاماً بحيث أنّ الجسم لا يخسر عمليّا، ولو جزءاً متناهياً في الصغر من حرارته.

أغلقت الكتاب.

قلت لنفسي: لو فقط أحصل على فروة كهذه.

وضعت رأسي على الطاولة، أغمضت عينيّ. تخيلتني أغطس في بركة يغطّيها الجليد. مياهها خضراء. ولا أشعر بالبرد.

فجأة خطرت الفكرة على بالي. فتحت «موسوعة الحيوانات الثدييّة» مرّة أخرى. بحثت عن مقطع قرأت عنوانه وأهملت قراءته لسبب لا أفهمه. وكان ينتابني الإحساس العابر بأنني أبله وأنّني لن أجد ذلك «المقطع» مرّة ثانية، وأنّني فقدته إلى الأبد حين أهملته في المرّة الأولى.

وكان ذلك يشبه خروجي من مبنى «النهار» في ذلك الصباح البعيد، ودخول رالف، ورأسي الذي نظر نزولاً، الذي انحنى نزولاً، الذي...

لكنّي وجدت «المقطع».

عنوانه: Faculty of expression

كيف أترجمها إلى العربيّة؟

«مَلَكة التعبير»

قرأتها – قرأت الكلمات – مسرعاً. كنت أخشى أن تتبخّر كماء،

كسراب، قبل أن تبتلعها عيناي.

مَلَكة التعبير عند الدببة فقيرة جداً، وبدائيّة جداً. لهذا السبب يتمّ تصنيف الدببة في السيرك على أنّها الأخطر بين الحيوانات البريّة. لأنّ المدرّب لا يفهم تعابيرها. لأنّها لا تعرف كيف تُعبِّر عن أحاسيسها. وهو الأمر الذي تجيده جميع الحيوانات الأخرى.

كيف؟

على النحو التالي: يغضب الأسد أو الذئب أو النمر أو الفهد، فيفهم المراقب الخبير، على الفور، أنّها في حالة غضب. لأنّه يلاحظ فوراً كيف تلتوي آذانها إلى خلف وتظهر أسنانها في تكشيرة: إنّ هذا يعني استعداداً مطرداً للقتال.

هذه الإشارات تخدم كعلامات تحذير وإنذار. وفي الفصيلة الواحدة تنتهي المعركة، قبل أن تبدأ، عبر مبارزة بهذه التعابير. فالحيوانات تفهم بعضها بعضاً، وتدرك من قراءة هذه التعابير، القوّة الحقيقيّة لخصمها، فتتراجع أو تتقدّم.

لكن ليس الدبّ.

فالدبّ أذناه قصيرتان. والفرو يغطّيهما تقريباً. وهذا يعني أنّهما غير مرئيّتين. فحين تلتويان إلى خلف لا نلاحظ شيئاً لأنّنا بالكاد نراهما.

نحن، كما الحيوانات الأخرى، لا نرى أذني الدبّ.

كذلك فإنّ أسنان الدبّ وتكشيرته غير مرئية إلاّ للحشرات الزاحفة. وفي القطب لا توجد حشرات زاحفة.

لا أحد يرى أسنان الدبّ القطبيّ لأنّ كتفيه مرتفعتان، وعنقه ينزل صوب الأرض، ووجهه أيضاً.

لهذا لا تفهم الدببة القطبيّة بعضها بعضاً.

فإذا التقى دبّان قطبيّان بدأت المواجهة.

العضلات تشتدّ.

الرأس ينحني.

والفم مفتوح.

تكشيرة للدفاع وللهجوم في آن معاً.

تكشيرة تبدو كأنّها للدفاع والهجوم معاً.

لكنّها ليست كذلك.

إنّها ملتبسة.

وتشبه ابتسامة.

كأنّ الدبّ يقول: «إنّي حقّاً لا أريد المهاجمة، لكن لو هوجمت فإنّني سأدافع عن نفسي».

هل ذلك ما يقوله حقّاً؟

يضرب الثلج بإحدى قائمتيه الأماميّتين.

أسنانه تصطكّ. ليس خوفاً، ليس برداً، بل لتهديد الخصم، ولبثّ الرعب في أوصاله. فلاصطكاك هذه الأسنان الكبيرة، صوت حصى كثيرة تُخضّ في وعاء تَنَكيّ. ومن جوف الدبّين يخرج عواء متقطّع.

عواء يشبه البكاء والصراخ.

هل هو خائف؟

أم هل يستعد للانقضاض؟

الدبّ قبالة الدبّ.

الدببة القطبية تتشابه إلى حد التطابق. عينان. أنف. فم. الشكل نفسه. الوجه كالقناع.

انظر إلى صور وجوهها.

أراها حزينة.

أراها متعبة.

ومقرورة من البرد والخوف.

هذه الحيوانات الضخمة التي بضربة من مخلبها قد تقتل فيلاً.

أعلم هذا لأنّي قرأت ذات مرّة في الصحيفة عن حادثة مماثلة وقعت في حديقة الحيوانات.

والآن،

الدبّ قبالة الدبّ.

كأنّه قبالة مرآة.

انتعلت صندلي.

تركت الكتاب مفتوحاً على الطاولة.

مشيت نحو المخرج.

في صحراء بيضاء، دبّ قطبيّ يخطو منتعلاً صندلاً.

صباح الأحد، بينما كنت أدلق سطل الماء في كرسيّ المرحاض، فكّرت أنّ حياتي تشبه هذه الدوّامة من المياه القذرة، وهي تنزلق عبر قعر الكرسي، في مجارير لا أعرف طولها، حتى تخرج إلى البحر.

البحر نفسه حيث طفت جثّة رالف.

تحت سريري صندوق خشبيّ كبير ابتعته من بائع للخردة يداوم على الجلوس تحت جسر البربير سبع ساعات كلّ نهار. داخل الصندوق دفاتر كثيرة. على هذه الدفاتر أنسخ، عادةً، أشياءَ تلفت انتباهي في الكتب التي أقرأها.

بعد سنوات طويلة، بعد مئات السنين ربّما، قد يفتح أحدهم هذا الصندوق، ويحسبني الكاتب الذي ألّف كلّ ما في هذه الدفاتر. أليس هذا ممكناً؟ قد يكون ممكناً فيما لو حُرقت جميع مكتبات العالم دُفعة واحدة ولم ينتبه أحد إلى هذا الصندوق. عندئذ قد ينقذ صندوقي ذاكرة البشريّة من الضياع. تُرى هل يجب أن أتقاسم هذا الفضل العظيم مع بائع الخردة الذي باعني هذا الصندوق المهمّ بعشرة دولارات فقط؟ هل هذا ما تساويه الذاكرة البشريّة؟

أعرف أنّ هلوستي هذه هي صنيع الصداع، وقنينة النبيذ التي سهرت معي خلال اللّيل. وأجد نفسي غير قادرٍ على إنهاء هذا التيّار من الأفكار التي لا معنى لها.

فتحت الصندوق.

بين الدفاتر بعض الكتب التي نسيت أن أرميها.

فتحت أحدها.

«وَصَفَ كارستيرز الشخصيّة الانتحارية، أو المعرّضة للانتحار، بالمواصفات والخصال التالية: شخص وحيد، أعزب أو مطلّق، يعيش في غرفة في نزل أو فندق. أو متزوّج ولكنّه قليل الأطفال، إلى حدود الخمسة، إذ كلّما زاد طفل قلّ احتمال الانتحار. كما أنّه ضعيف الإيمان بالدِّين، وربّما مدمن على الخمر».

«وَصَفَ ولیامز الشخصيّة الانتحاريّة بأنّها: صلبة، تحبّ ذاتها، غير مرنة، ولا تستسلم للواقع».

أخذت أضحك. يا للعلماء الأذكياء! الثاني، وليامز، يعمل في «مركز الصحّة العقليّة لجامعة ميتشيغان». أهو يعمل أم يتلقّى العلاج هناك؟

«في الجمهوريّة اللبنانيّة، تحدث حوالى ٢٠٠ محاولة انتحاريّة كلّ سنة، و٤٠ حادثة انتحارية، أي بنسبة ١,٨ لكلّ مئة ألف نسمة، وهي أعلى من كلّ من العراق وسوريا. وفي سنة ١٩٦٥ حدثت في مدينة بيروت فقط ست حالات انتحار (٣ إناث و٣ ذكور) جميعهم دون الخامسة والثلاثين من العمر.

وعموماً نسبة الانتحار في الدول العربيّة أقلّ بكثير منها في المجتمعات الغربيّة. وسبب ذلك هو قوّة التماسك العائليّ والرعاية والاحترام التقليديّ العربيّ للكبار الذي يكون واقياً ضدّ العزلة أو الأزمات الاقتصاديّة».

الواقي ضدّ العزلة!

الاحترام!

التماسك!

الدبّ سكران. لكنّه يعلم: لا بدّ للأحد أن ينتهي.

عند الظهيرة انتصف الأحد.

احتفالاً بذلك قمت وقفزت فوق السرير. مع كل قفزة أرتفع أكثر فأكثر. لو أنّ نوابض السرير قوية كفاية لكان رأسي ضرب السقف. وربّما السماء.

ثم تذكرت: سريري خشبيّ وغير مزوّد بنوابض.

قفزت أعلى، سقطت أرضاً.

بينما كنت أسقط تخيّلت بحراً تحتي.

طبعاً كان بمقدوري أن أرى غرفة مليئة بالأثاث الخفيف. فهناك أقدر أن أجلس مع أليس، ومع الأرنب الأبيض، ومع الفارسين، ومع الملك الأحمر.

لكنّي لم أتخيّل غرفة بل تخيّلت بحراً.

وكان بمقدوري أن أتخيّل البحر نفسه مغطّى بألواح الجليد، وأن أتخيّل نفسي غائصاً بين هذه الألواح الصلبة البيضاء التي يبرق الضوء فوق سطوحها، ومطارداً سمكة أو حتّى فقمة، وفروي الأبيض يحميني من صقيع المياه الخضراء.

ولم أفعل.

وسقطت على الصخور.

ولم أمت.

جلست على الأرض المتّسخة ونظرت صوب المغسلة. رأيت نقطة معلّقة من فم الحنفيّة. ماذا لو فتحت الحنفيّة وأغرقت هذا القبو بالماء!

على الأقلّ، هكذا، لا تعود الأرض مغطّاة بالقشرة السوداء.

الأرض، أي أرض غرفتي.

لا توجد حنفيّة في الكون قادرة على تنظيف كوكب الأرض برمّته.

هذا الأحد لن ينتهي، قلت لنفسي.

الأحد ذاته.

العاشرة ليلاً.

بعد رغيفٍ محشوٍّ بالبطاطا المسلوقة.

سكبت كوباً من الشاي، وأعدت قراءة آخر نصّ* كتبه رالف في حياته:

«لمَ تكتب؟

المفارقة أنّك تطرح السؤال وأنت تكتب. وكأنّك تستعين بكلّ ما ذخرته من طاقة لتقاوم عبثاً ذاك الصمت المطلق الذي تخشاه...

ماذا تخشى، أنت الذي تأثّرت، طفلاً، بقصيدة وصف «موت الذئب» بكل تفاصيله؟ ألم يقل الشاعر الفرنسيّ إن «الصمت وحده عظيم» وإن «كلّ ما عداه ضعف»؟

رسالتك إذن لن تبلغ... وإن سعيت عبثاً إلى أن تعبّر عنها بكلمات...

والأفضل أن تصمت..

اصغِ جيّداً، أنت الذي نويت الكتابة، إلى هذا الصوت الخارج

* نص «السكوت والبلاغة». نُشر للمرّة الأولى بعد أربعين يوماً من انتحار كاتبه

من فراغك: صوت يصمّ الآذان ويشلّ اليد التي تكتب. صوت يدعوك إلى زيارة عالم لم تعهده من قبل.

هيّا، ارحلْ كالتائه، واستعدّ جيّداً لزيارة عالم السكوت. حضّرْ أمتعتك بعناية فائقة.

ضعْ فيها كلّ ما تعرفه وما لا تعرفه، وأيضاً ما كنت تودّ أن تعرفه. رتّب كلّ هذه الأشياء بعناية فائقة، تبعاً لمزاجك...

على أن تتأكّد أنّها مرتّبة كما شئت أن ترتّبها.

ثم ارمِ أمتعتك كلّها في بحر النسيان.

انسَ ما تعرفه، وما أردت أن تعرفه، وأيضاً ما لا تعرفه.

تذكّر فقط أنّك ارتكبت خطأً فادحاً حين اعتبرت الكلام وسيلة إنباء. الكلام لا ينبئ بقدر ما يشوّه. إنّه، كما تعرف يا قارئي، من أبرز أدوات الكذب. يختزن الأكاذيب على أنواعها.

هل أدركت لحظة أنّه يسمح لك بصياغة جمل لا تعبّر عن مشاعرك ولا عن الواقع؟

فالرسالة لا تبلغ ولن تبلغ..

لمَ الكتابة؟

امكثْ، أنت من نويت الكتابة، في مكانك... تأمّل بقع البلاط، واخترع لها أشكالاً.. ابحث عبثاً في زوايا وحشتك.. لن تكتشف شيئاً.

إلاّ أنّ صمت من نَوى الكتابة من نوع مختلف. إنّه من النوع الذي لا يخضع للقراءة أو للتأويل. لا بلاغة في صمته بعد أن اكتشف بحدسه أنّ الاتّصال، كما تقول أغنية فرنسية، بات مستحيلاً:

«لم تكن تحبّه، هو أيضاً لم يكن يحبّها

طريفة هي الحياة

كان من الممكن أن يتعارفا

غير أنّ أحدهما لم يرَ الآخر أبداً».

لم تصغِ، أنت الذي كتبت، إلى أصداء الصوت الذي يدوّي في فراغك.

اجلسِ الآن على كرسيَ، تأمّل بقع البلاط في شقّتك الرطبة.. وابنِ منهاَ أَشكالاً..

ما عليك سوى أن تجلس..

التزمِ الصمت.. إيّاك أن تكتب..

إذ إنّ الكتابة، كما صرّحت، لا تنبئ..

قال العرب: «البلاغة في الإيجاز».

والأصحّ في معتقدي أنّ البلاغة في الصمت.

ألم تقرأ ما جاء في التلمود: «الكلام من فضة، ولكنّ السكوت من ذهب»....

وفي الصمت بلاغة، كما قال باسكال».

العاشرة والربع ليلاً.

فقط دقائق قليلة، لقراءة نص أخير لشخص قفز إلى البحر. ثم أعدت الدفتر إلى الصندوق.

في دفتر آخر قرأت: «أن أكون فقدت الصمت، أمر لا يجعلني أنجو من ندمي عليه. فأنا لا أستطيع أن أصف مأساة الرَّجل الذي، في يوم ما، بدأ بالكلام».

العاشرة والثلث.

بينما أدخّن سيجارة، أقفلت الصندوق وأعدته إلى موضعه تحت السرير.

ذهبت إلى المرآة.

رأيت البوّابة السوداء.

رأيت اللمبة التي تتدلّى من السقف كالأفعى.

رأيت نقاطاً بيضاء.

من النقاط عرفت أنّ الصداع في طريقه إليّ.

لو أقدر أن أختبئ في صندوق ما، فلا يعثر عليّ، ولا يدخل إلى جمجمتي، ويدعني بسلام هذه الليلة فقط.

لكنّه في جمجمتي أصلاً.

هو، ورالف.

فجر الاثنين.

أنهض على أطرافي الأربعة.

وأستقيم فوق قدميّ رافعاً يديّ في الهواء.

كأنّني الإنسان الأوّل.

من التراب أخرج، حيواناً أوّلاً، إنساناً فيما بعد.

خارج الكوّة، غبشة الفجر الرماديّة،

رويداً رويداً تخترقها خيوط ضوء خضراء.

لا أفزع. لن أفزع. منذ دقائق والألم يتراجع. أعرف أنّ نوبة الصداع لن تعود. أقيس أوقات قدومه وزواله، أعرفه كصديق قديم. لقد ذهب عنّي. إلى حين.

تحتي، الأرض ماتزال رطبة. قبل ساعة فقط أقفلت الحنفيّة، وأخرجت كيس النايلون من قعر المغسلة، واستخدمت منشفة قديمة كي أجمع الماء عن الأرض. وكنت أعصر المنشفة فوق كرسي المرحاض، وأشتمّ العالم، وأشتمّ نفسي.

قبل أن أقفل الحنفيّة كان العالم لا بأس به. كنت أرى المياه تتدفّق كالنهر، وتطوف عن جوانب المغسلة، وتطرطق فوق القشرة السميكة السوداء.

هكذا نسيت رأسي.

هكذا نسيت الوقت.

شماتةً بهيراقليطس.

كنت أنظر إلى المياه المتدفّقة، وأفكّر أنّني أجلس قرب النهر، وأنّ جدّي يجلس قربي. كنّا نأكل الدرّاق الأحمر الحلو، وكان النهر يجري تحت أقدامنا، وكنّا نحدّق إلى مياهه الصافية، وننسى العالم. وأنفسنا.

في البيت كان الزوّار يجتمعون حول سرير جدّتي المرتفع. وكنت أحدّق إلى العمود حيث كيس المصل، وأرى الأنبوب الذي غرزوا رأسه في الذراع المعروقة لجدّتي، ثم أغمض عينيّ، وأراني قرب النهر.

وفي جنازة جدّي فعلت الشيء نفسه. ذهبت إلى الحمّام، أقفلت الباب على نفسي، وفتحت حنفيّة المغسلة. حتى فرغ الخزّان الحديديّ الصغير من الماء، فخرجت.

كان ممدّداً في التابوت، نحيلاً كعود يابس. فمنذ أن ماتت جدّتي امتنع عن تناول الطعام.

في زوايا الغرفة برك ماء صغيرة. ذهبت إلى الحمّام. عصرت المنشفة جيّداً فوق الكرسيّ الذي تلطّخت جوانبه بالكمخة السوداء، ثم عدت إلى الغرفة. تعثّرت بقدميّ، ركعت في الزاوية، جمعت بقعة المياه في دائرة، دُرت بالمنشفة حولها. قلت إنني يجب أن أكون من بنغلادش أو سريلانكا، أطلقت ضحكة عندما تعالى الأذان من الجامع القريب، وقلت ها أنا أستعيد نفسي.

الإنسان الأوّل أيضاً كان يعيش في الكهوف. لكنّه لم يكن يهتمَ بالنظافة. ولم يكن يغسل الأرض بمياه تتدفّق من حوض مغسلة.

في ما بعد، مع النشوء والارتقاء، تبدّلت الأشياء.

كلّ كائن لا يتأقلم مع بيئته محكوم عليه بالفناء. الديناصور انقرض، لأنّه رفض ألاّ يبقى ضخماً.

كلّ كائن عليه أن يتحوّل إلى قزم حتى يبقى موجوداً. وإلاّ فإنّه لن يجد من الطعّام ما يشبعه.

وحتى لو وجد طعاماً كافياً، أو تدبّر لنفسه نظام حمية يكفل له البقاء على قيد الحياة، فإنّه حتماً سيجد نفسه غريباً، بين آخرين ليسوا مثله.

فالآخرون عرفوا كيف يتأقلمون.

لقد نظروا إلى المرآة فلاحظوا أنّهم أقزام.

واقتنعوا.

فباتوا أقزاماً.

إلاّ الديناصور.

والدبّ القطبيّ.

ونرسيس.

والرجل القابع داخل المرآة.

في مساء الاثنين نفسه، وكان الرابع والعشرين من حزيران، قصدت البيت في البطريركيّة.

وكما في المرّة السابقة أُضطررت إلى الصعود على الدرج، لأنّ المصعد كان مشغولاً. طرقت الباب، ففتحه لي ابن رالف. وخلفه ظهرت حلا.

قالت إنّها ذاهبة لإحضار ابنتها.

من كتفها تتدلّى حقيبة جلديّة سوداء. في يدها علاّقة مفاتيح. إنّها مفاتيح البيت والسيّارة.

– سأجلب لك الصور، تابعت قائلةً.

وقفت أمام الباب، أنتظر. والابن، ابراهيم، يحدّق إليّ بغرابة، فكأنّني قد هبطت فوق كوكب الأرض لتوّي.

أعطتني الصور. كانت قد وضعتها في مغلّف أبيض. سألتها: «والنسخة عن تقرير الطبيب الشرعيّ؟»

– «صحيح، لحظة واحدة فقط!» قالت.

ثم دخلت مرّة أخرى.

واصل الابن تحديقه إليّ.

تذكرت الرجل، صاحب الوجه الشمعيّ والأنف الحادّ كالسكّين، الذي حدّق إليّ في الباص قبل أيّام.

هل أكرّر الأغنية ذاتها الآن؟

أنقذتني حلا بظهورها. أخذت المغلّف من يدي، ووضعت في داخله الورقة التي جلبتها من الداخل.

– «هيا»، قالت لابنها، «أختك تنتظرنا».

سألتني هل أريد أن توصلني إلى مكان ما بسيّارتها.

– «لا، شكراً، أفضّل المشي». أجبتها.

على الدرج سألتها متى سكنوا هنا، منذ كم سنة؟

– منذ ١٧ سنة، أجابت.

وسألتها عن المصعد، هل توجد مرآة داخله؟

– عفوا؟ سألتني.

– لا شيء. قلت.

انتظرت حتى تجاوزتني بسيارتها، ثم جلست على حافة الرصيف القريب من المدرسة الجديدة. المصابيح الكهربائية مضاءة، أشعّتها البرتقالية تهبط فوقي كرذاذ مطر ناعم.

على المغلّف قرأت:

ARSLANIAN SARKIS

PHOTOGRAPHIE

Près de l'hotel Napoléon

Tél. Bur. 389705 - Dom. 354621

HAMRA - BEYROUTH

تحت هذا العنوان المطبوع بحبر أسود، كتب صاحب «الستديو»، أو أحد الموظفين هناك، اسم رالف، بالحرف الأجنبي، أمام كلمة «Nom»:

Nom ... ... Ralph Rizkallah.

فتحت المغلّف، أخرجت «تقرير الطبيب الشرعيّ». قبل أن أبدا بقراءة التقرير كنت أعرف شيئاً واحداً عن الطريقة التي مات بها

رالف: لقد قفز عن صخرة الروشة.

وهذه المعلومة كانت قد وصلت إليّ عبر قراءة «الملحق» بعد أسبوع بالتمام على موت رالف، فلقد كتب إلياس خوري في مقالته الأسبوعيّة نصّاً بدأه على النحو التالي: «عزيزي رالف،...». ومن هذا النّص فهمت أن رالف «أوقف سيّارته على جانب الطريق، نزل منها، قطع الحاجز الحديديّ، ومضى إلى المجهول»... إلى الانتحار الذي لفّه ورماه «قرب صخرة الروشة».

على الرصيف، قبالة موقف السيّارات، والبيت القديم الرابض فوق هضبة البطريركيّة، جلست. وطوال دقائق، غرقت في قراءة تقرير يصف جثّة رالف. وكنت أعلم أنّ هذه الدقائق القليلة لن تغادرني بعد ذلك أبداً. وكنت أحسّني أهوي ثقيلاً إلى عتمة بئر لا قرار لها، ولا مخرج منها، لأنّها محفورة داخل صدري، ولأنّها مع كلّ كلمة إضافيّة أقرأها، تهبط بي، أعمق فأعمق، إلى حيث لا أعلم.

وفكرت أنّني لن أتوقّف عن السقوط.

## تقرير طبّي شرعي ٩٥/١٩٥

التاريخ: ١٩٩٥/١٠/٢٨

بتاريخه أعلاه، وبتكليف من النيابة العامة الاستئنافية في بيروت، بواسطة فصيلة حبيش، قمت بالكشف على جثّة المرحوم الدكتور رالف إبراهيم رزق اللّه، لبنان، مواليد ١٩٥٠، والدته رينه، وذلك في الساعة السادسة مساءً في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت.

وقد تبيّن لي بنتيجة الكشف ما يلي:

١- الجثّة عائدة إلى رجل مربوع القامة، رياضي البنية، في العقد الخامس من العمر، يرتدي جينزاً كحلياً وقميصاً كاكياً، أسود الشعر مع قليل من الشيب وذي شاربين كثيفين.

٢ - الشعر والثياب مازالت رطبة.

٣ - كسر مفتّت في سقف الجمجمة في العظم الجانبي الأيسر left parietalbone. كما يوجد جرح بطول ٥ سم فوق الصدغ الأيمن.

٤ - كسر مفتّت في الكوع الأيسر.

٥ - كسر في الفخذ الأيسر وجرح بليغ فوق الركبة اليسرى.

٦ - كسر مفتّت في الساق اليمنى فوق الكاحل.

٧ - سحجة واسعة على الفخذ الأيمن للجهة الداخلية.

٨ - اليباس الرمّي، والزرقة الرميّة قد بدأت تتموضع علماً أن وجود الجثّة في الماء يؤخّر ظهور مثل هذه العلامات.

**وفي الخلاصة**: فإنّ المرحوم الدكتور رالف إبراهيم رزق اللّه قد سقط في البحر قرب مقهى دبيبو، وقد أدّى ارتطامه بالصخور إلى صدمة دماغية مع كسر مفتّت في الجمجمة وكسور متفرّقة في مختلف أنحاء جسمه أدّت إلى وفاته منذ ٦ - ٧ ساعات تقريباً.

**الدكتور علي حسن**
**جراحة عامّة وعظمية**
**طبيب شرعي**

إني أمشي في شارع مغطّى بالثلج. قبيل المساء. لم تحلّ الظلمة تماماً بعد. وأضواء الأعمدة ماتزال مطفأة. لون الثلج أمامي أصفر. عيناي تؤلمانني. أرى ضباباً يشبه الغبار كأنّه يصعد من الثلج.

إنّي أسير على خطّ «الخارجيّة». باتّجاه نهايته. حيث المفرق المؤدّي إلى شارع «المطران مسرّة». حولي سيّارات مركونة. والمكان صامت ومهجور. كأنّي في الصحراء. كأنّي في القطب الشماليّ.

هناك ثلج، لكن البرد ليس شديداً.

ماذا أفعل هنا؟

إنّي أتبع خطى مرسومة على الثلج. خمس أصابع. ثم خمس أصابع أخرى. إنّها خطى رجل. أو دبّ قطبيّ.

فجأة أرى رجلاً يمشي أمامي. إنّه يتقدّمني بعشرة أمتار.

من هذا؟

إنّه طويل ونحيل. ويشبه جدّي. شعره قصير. وعنقه ينحني. وكتفاه عاليتان. يمشي كأنّه في منام.

من هذا؟

كأنّه سمع صوتي، كأنّه سمع صوت خطاي خلفه، يبطئ حركته فجأة، فأعلم أنّه سيلتفت.

أصوات خطاي تتصاعد، كأنّنا في فيلم رعب.

وهناك خطاه أيضاً. فكأنّه الصوت وصداه.

يلتفت، ينظر إليّ، عيناه كبيرتان، شارباه كثيفان، هناك جرح فوق صدغه الأيسر، جرح بطول ٥ سم تقريباً.

إنّه رالف، كأنّه في مرآة: لقد انتقل الجرح إلى الجانب الآخر.

يحدّق إلى وجهي. لكنّه لا يراني.

كأنّي لا أحد.

ويتابع طريقه.

ينعطف إلى اليمين، يختفي قرب مبنى أبيض.

إنّه يمضي باتّجاه شارع «المطران مسرّة».

ألحق به، فأجدني في شارع إلياس السيوفي.

كيف قطعت هذه المسافة؟

لماذا لا أرى «كنيسة السيّدة»؟

أين هو؟

أراه فجأة.

أركض خلفه.

صوت خطى. خطى ثقيلة. كأنّها خطى دِبَبة.

يلتفت، يحدّق إليّ، إلى عينيّ، لكنّه لا يراني.

لماذا يفعل بي هذا؟

ألأنّي وضعت رأسي في الأرض يوم التقينا هناك، في مدخل مبنى «النهار»؟

لكنّه فعلاً لا يبصرني، إنّه لا يلعب معي، إنّه فقط لا يراني، كأنّي لست حقيقيّاً، كأنّني في عالم آخر، في زمن آخر، في مكان آخر، في...

ثم يختفي خلف منعطف.

ويتلاشى صوت الخطى.

فأبقى وحيداً في شارع مغطّى بالثلج.

وحين تضاء المصابيح الكهربائيّة يبدأ الصداع.

في معظم الصور التي اختارت حلا أن تضعها لي في المغلّف الأبيض، يظهر رالف ضاحكاً. إمّا وحده، أو معها، أو وسط حفلات صاخبة.

هناك حفلة مثلاً في الجامعة، أقامها له زملاؤه الأساتذة.

هناك حفلة في بيت ما، ربما احتفالاً بزواج أحدهم. وهناك زواج رونالد.

في حفلة الجامعة يبدو نحيلاً جدّاً. قميصه مفتوح. وبنطلونه باهت اللون. إنّه متعب. لكنّه يبتسم.

في صور الحفلة التي لا أعرف مناسبتها، ولا أين أُقيمت، يظهر إلى جانب رالف شخص آخر أعرف وجهه. هذا الشخص هو الياس خوري.

في هذه الصور يظهر رالف في قميص كاكي. إنّه القميص الذي مات به. وهذه الصور التقطت له، في أغلب الظنّ، خلال الفترة الأخيرة من حياته.

إنّه نجم الحفلة. إنّه يرقص، رافعاً يديه، وبقع العرق تُلصق قميصه بجسمه. والجميع حوله يصفّقون له.

أمّا هو فلا يرقص لأحد. لا ينظر صوبهم، ولا صوب عدسة الكاميرا. إنّه ينظر إلى حيث لا نعلم.

إليـاس خـوري، في قـمـيص أبيض وبنطال أبيض، يحـاول أن يشـاركـه الرقص. رالف ينظر إلى الأرض. إليـاس خـوري ينظر إلى عينيه، أو هو يحاول ذلك.

وعينا رالف غير مرئيّتين.

إلاّ للحشرات الزاحفة على أرض البهو.

لكنّ البهو مزدحم بالأقدام، ولا حشرات هنا.

نرى الشعر الكثيف على يديه السمراوين.

نرى أنّه طويل ونحيل.

الأزرار العليا من قميصه مفكوكة. يظهر شعر صدره. والساعة ذات الرباط الجلديّ الأسود. والحزام الرماديّ.

الزاوية العليا والبعيدة للبهو تعكس الضوء الأصفر القويّ لمصباح لا نراه، لكنّه على الأرجح مثبت في الزاوية السفلى.

الزحمة لا تطاق.

قميص رالف مبقّع بالعرق، عند الصدر، وحول الإبطين.

هذا البهو يشبه البهو في بيت البطريركيّة. أقصد، في البيت الذي ذهبت إليه، البيت الموجود في بناية خوجا.

في صورة لرالف مع زوجته تمّ التقاطها في هذه الحفلة، نرى خلفهما، عبر الزجاج، ليلاً أسود سميكاً.

هو وهي، جنباً إلى جنب.

هي تنظر إلى عدسة الكاميرا.

هو إلى لا-مكان.

عيناه واسعتان. اللون الأبيض فيهما صافٍ كضوء نيون، لكن إلى أين ينظر هذا الرجل؟

ولماذا يبتسم على هذا النحو؟

كأنّه لا يبتسم أبداً.

في صورة أخرى له يغطّي عينيه بنظّارات سوداء، ويضحك، ويرفع ذراعيه عالياً. إنّه يمشي بخطى واسعة، على الرصيف المقابل لمطعم «اليلدزلار» القائم في محلّة الروشة. وتحته ظلّه. وهو يدعسه ويمشي فوقه. إنّها الظهيرة على الأرجح. في يده اليسرى يمسك بحقيبة بنّيّة صغيرة، وفي اليد اليمنى علاّقة مفاتيح. وذراعاه وجسمه ترسم صليباً.

خلفه ترتفع البنايات التي يسكنها فقراء ومهجّرون. وبين البنايات تظهر سماء زرقاء صافية.

إلى يمينه حافّة الرصيف مكسورة.

الثلاثاء ٢٥ حزيران ١٩٩٦.

أنحدر في نزلة الجامع القريبة. أتجاوز المبنى حيث «دار الآداب». وأتابع انحداري صوب البحر.

عن يميني محلاّت الحلويات والجدار العالي لفندق الكارلتون. أقطع الكورنيش إلى الجانب الآخر، جانب البحر. إنّي في طريقي إلى صخرة الروشة. منذ أيّام أؤجّل هذه الرحلة، اليوم صباحاً قرّرت أنّ عليّ أن أقوم بهذا عاجلاً أم آجلاً.

قلت أذهب اليوم، كي لا أظلّ أكرّر القيام بالرحلة ذاتها في كل ليلة، نائماً في سريري، والعرق يسيل منّي.

في المنام أتسلّق الصخرة بسرعة. فوقها، الهواء بارد كالثلج.

قبل اليوم لم أتفرّج أبداً على صخرة الروشة عن قرب. كنت أراها من نافذة السيّارة، أو الباص، رؤية سريعة وعابرة.

وحين كنت صغيراً كنت أتفرّج على صورتها في كتاب الجغرافيا المدرسيّ وأتساءل لماذا يسمّونها أيضاً بصخرة الحمام أو «مغارة الحمام». فأخبرني الأستاذ: «هذا الاسم فرنسيّ الأصل، الفرنسيون أسموها هكذا لأنّها مثقوبة في وسطها وتشبه البيت الذي يصنعونه للحمام. اسمها: "Rocher de Pigeon"».

أمشي على الرصيف العريض. من هنا لا يمكنني رؤية الصخرة. أسأل شخصاً ماراً عن مقهى دبيبو. إنّه يستند إلى عصا ويعرج من

ساقه اليمنى. رفع الرّجل عصاه وأشار بها إلى آخر الطريق، إلى حيث لا أرى، لأنّ الرصيف يصعد حتّى نقطة مرتفعة ثم يذهب في اتّجاه مطعم نصر.

من النقطة حيث وقفت وسألت الرّجل عن مقهى دبيبو لم يكن بمقدوري أن أرى مطعم نصر. كنت فقط أتخيّل أنّه هناك، بعد تلك النقطة المرتفعة إلى حيث أسير. وكنت أقول لنفسي إنّ الرّجل صاحب العصا، يشبه ذلك الرّجل الذي حسبته أطرش، والمقيم في بناية خوجا في البطريركيّة.

حين وصلت إلى النقطة المرتفعة انتهت الطلعة وانكشف الدرب أمامي. وعن يساري رأيت صخرة الروشة.

هناك ثلاثة شبّان سوريون يجلسون على حافة الفسحة الترابية الضيّقة، بعد الحاجز الحديديّ الذي يحمي الأولاد من السقوط عن الرصيف إلى البحر.

أتقدّم منهم. طبعاً أقطع الحاجز أوّلاً.

إنّهم يدلّون أقدامهم في الفراغ.

تحتنا بخمسين متراً تقريباً، يتحرّك قارب خشبيّ صغير متهادياً فوق صفحة مياه خضراء وساكنة.

أسألهم عن الصخرة:

– هناك صخرتان قبالتنا، أيّهما صخرة الروشة؟

– الكبيرة، يقولون.

الصخرتان تبعدان عن بعضهما بعضاً أمتاراً معدودة.

الكبيرة حجمها ضعفا حجم الأخرى. قمّتها مغطّاة بالأعشاب والشوك. يمكن للمرء أن يبني كوخاً صغيراً فوقها.

أسألهم عن ارتفاعها.

– ٤٧ متراً، يقولون.

إنّها تبعد عن الجدار الصخري حيث نقف مسافة ثلاث دقائق

أو أربع سباحة. تحتنا لا يتجاوز عمق الماء الثلاثة أمتار. من الجهة الأخرى للصخرة، حيث يمتدّ البحر إلى ما لا نهاية، المياه عميقة. ربما أكثر من عشرين متراً.

– إذاً، الذين يريدون الانتحار يقفون فوقها من هذه الجهة، ويرمون أنفسهم إلى هذه الجهة، أليس كذلك؟

– صحيح، يقولون لي.

تحتنا، في القارب، رجلان. أحدهما يقف مباعداً ما بين ساقيه، وهو يخبط قعر القارب بعصا ثخينة، خبطات موقّعة كأنّها طبول إفريقيّة.

– إنّه يجمع الأسماك باتّجاه الشبكة، يقولون لي.

وأرى، حيث يشيرون، طابات الشبكة وقد عامت تحتنا، بمحاذاة أسفل الجدار الصخري.

– لكن كيف يتسلقّون الصخرة؟ أسألهم.

فيخبرونني عن درج محفور فيها، لا يُرى من هذه النقطة.

– ومن أين يسبحون إليها؟

فيشيرون إلى اليسار. هناك يمتد لسان من الصخور إلى داخل البحر. ويقولون إنّ من يريد أن يسبح إلى الصخرة ينزل إلى البحر من تلك الجهة.

– وكم يحتاج من الوقت كي يصل إليها إذا كان سابحاً ماهراً؟.

– قرابة السبع دقائق، يقولون لي.

– ومن هنا؟ أسألهم.

فيضحكون ويقولون لي إنّ الذي يقفز من هنا يموت فوراً.

– من هنا أيضاً انتحر بعضهم، قالوا لي.

تركتهم، تجاوزت الحاجز الحديديّ في الاتّجاه المعاكس، رجعت إلى الرصيف.

لقد وجدوه في البنطال والقميص. وفي «الملحق» قرأت أنّ الفردة اليسرى من حذائه كانت مفقودة. فكيف يكون قد سبح إلى تلك الصخرة؟

يقترب منّي شاب سوريّ يحمل آلة للتصوير الفوريّ. يريد أن يلتقط لي صورة. بـ٤ آلاف ليرة فقط، يقول. فأساومه. فيرضى بـ٣ آلاف فقط.

أقول له: أعطني الكاميرا.

وألتقط صورة للصخرة.

ثم أسأله عنها.

السباحة إليها تستغرق ربع ساعة، يخبرني. وتسلّقها حتى قمّتها يستغرق عشر دقائق.

أيعقل كلّ هذا التعب من أجل الموت؟

أقول لنفسي: الّذين ينتحرون عن الصخرة أقوياء جدّاً.

وأفكّر أنّني أستطيع أن أرميها بحجر من هنا، وحين أقول ذلك للشابّ صاحب الكاميرا يخبرني أنّ الصخرة فقط تبدو قريبة لنا، لكنها في الحقيقة بعيدة جدّاً.

«ليست بعيدة جدّاً، لا»، أقول لنفسي.

نحتاج إلى القليل من الخيبة فقط.

والقليل من الوحدة.

وبعض الصداع.

أتابع طريقي. أتجاوز مطعم نصر. بعد مطعم نصر أعثر على مقهى دبيبو. إنّه في النزلة. أوّل مطعم على الروشة تصادفه عن يمينك، حين تكون صاعداً من جهة الحمّام العسكريّ.

تقرير الطبيب الشرعيّ يقول إنّهم عثروا على الجثّة في المياه

القريبة من هذا المقهى. أقترب من حافّة الرصيف وأنظر تحتي. منظر مخيف. من هنا أيضاً تقتل السقطة. أرفع رأسي وأنظر باتّجاه الصخرة. السباحة إليها من هذه الجهة ربما تستغرق نصف ساعة. أو أكثر.

بين الصور التي أعطتني إيّاها حلا، صورة لرالف هنا. أبحث عن حافّة الرصيف المكسورة بنظراتي، فأعثر عليها. إنّها على بعد خطوات قليلة فقط. أنظر إلى الجهة الأخرى من الشارع، أبحث عن مطعم «يلدزلار»، فلا أجده، ولا أجد لافتته ذات الأحرف البرتقالية الكبيرة.

أسأل أحد المارّة.

يشير إلى ورشة بناء، إلى بناية جديدة ترتفع عالياً جداً. يقول: لقد هدموه، أخرجوا المهجّرين من البناية، وهدموه. الآن بات اسمه «برج سوبرة».

أنظر جيّداً: لا، لم يهدموه، فقط قاموا بترميم البناية. وأزالوا المطعم. أو ربّما أزالوه مؤقّتاً.

أمّا رالف فلا!

رالف مضى إلى الأبد.

أتقدّم من مدخل «مطعم ومقهى دبيبو». هناك نادل يقف أمام الباب. أقول له إنّني من نادي التصوير الفوتغرافي في الجامعة الأميركيّة، وإنّني أبحث عن الموقع الأفضل في المنطقة لتصوير صخرة الروشة.

فيسمح لي بالخروج إلى الشرفة المعلّقة فوق البحر، في الجانب الآخر من المطعم.

وقفت بين الكراسيّ والطاولات البيضاء. وضعت يدي على الدرابزين الحديد. من هنا تبدو الصخرتان كأنّهما صخرة واحدة. في الأسفل تخبط المياه جدار الشاطئ الصخريّ. أرى قسطلاً أفكّر أنّه للمجارير. وقرب القسطل درج محفور في الصخر يصعد حتى يتّصل بدرج من حجارة الباطون. هناك باب في أعلى الدرج. باب قبو أو مخزن، يشبه باب كهفي.

أفكّر أنّه مخزن تابع للمطعم، وأنّ الدرج يستخدم للنزول حتّى القسطل وتنظيفه.

المياه تتهادى، أفكّر أنّها قبل ثمانية أشهر فقط حملت جسم رالف من الصخرة البعيدة إلى هنا. تُرى، هل كانت عيناه مغمضتين طوال الوقت؟

أتذكّر صوره مع أهله في مطعم نصر القريب. بعد أن رمى نفسه طَفَتِ الجثّة نحو المطعم كأنّها تسعى إليه. تُرى، من انتشله، وهل نزلوا إليه على هذا الدرج حيث قسطل المجرور؟ وحين حملوه، أين وضعوه أوّلاً؟ في القبو – المخزن؟

أعود إلى المطعم. أطلب من النادل ورقة وقلماً. وأسأله هل يمكن لي أن أصعد إلى السطح.

– طبعاً، يقول.

أصعد الدرج الداخليّ إلى السطح. في طريقي إلى فوق أرى لوحة زيتيّة معلّقة إلى الجدار عند صحن الدرج. إنّها قديمة والغبار السميك يغطّيها.

السطح يشبه ساحة لجمع الخردة: خزّانات حديدية حمراء. طاولات محطّمة. ثريّات قديمة. طناجر أكلها الصدأ...

أرض السطح يغطّيها الخزّ. لونه أخضر – أصفر. أفكّر أنّه في الربيع يكون أخضر تماماً.

أتقدّم من الحافّة. أركع أرضاً. أخاف المرتفعات منذ طفولتي. قربي مدخنة. إنّها تشبه مدخنة سفينة أو قطار. ماذا لو وضعت وجهي فوق فوهتها ونظرت إلى تحت؟

فجأة يخرج دخان أسود منها، فأبتعد.

من هنا أرى القارب صغيراً، والرّجل وقد وضع العصا من يده وأخذ يجذف برفق صوب الشبكة والشاطئ. أرى أيضاً المغاور السوداء في أسفل الجدار الصخريّ.

الجدار الصخريّ الذي وقفت فوق قمّته قبل قليل كي أسأل الشبّان الثلاثة عن ارتفاع الصخرة وعن...

وأحدّق جيّداً: بلى، إنّي أراه؛ أرى الجسر الخشبيّ الصغير المثبت في أعلى الصخرة. الجسر الذي حدّثني عنه صاحب الكاميرا.

يصعدون إلى قِمّة الصخرة بدرج بدائي، هكذا يصلون إلى جهتها الشرقية. فإذا أرادو أن يقطعوا إلىً جانبها الغربي الأوسع، توجب عليهم أن يعبروا جسراً هو لوح قصير من الخشب. طوله متر تقريباً. وتحته الصخرة مشقوقة.

يبدو الجسر القصير من هنا خطّاً أسود وحسب. تحته فراغ أبيض وفوقه فراغ أبيض.

ألاحظ أنّه مائل قليلاً. كأنّه طلعة. أمّا بالنسبة إلى العائد عن

الصخرة، فهو نزلة.

صاحب الكاميرا أخبرني أنّ النزول عن الصخرة أصعب من تسلّقها. قال: «أخي صعد عليها مرّة. في الصعود لم يخف. لكنّ النزول صعب جداً. لأنّ درجها واقف كالجدار».

أقول لنفسي إنّ من يريد الانتحار لا يحتاج إلى أن يقطع الجسر لأنّه ينتحر عن هذه الجهة، حيث المياه ليست عميقة. والأسهل أن لا يرمي نفسه عن الصخرة، وأن يفعل مثلي ويأتي إلى هذا السطح.

صاحب الكاميرا أخبرني أيضاً عن شابّ فلسطينيّ انتحر قبل فترة هنا.

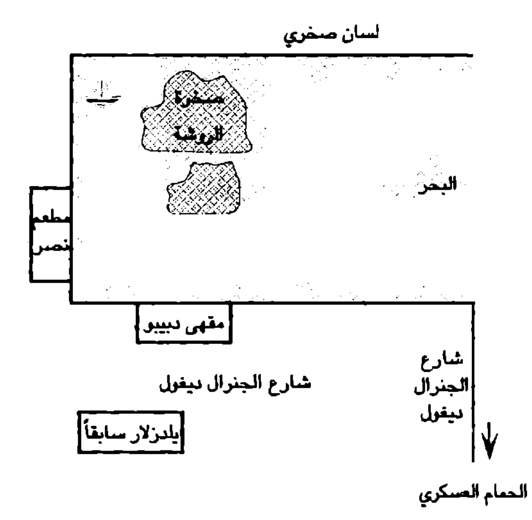
– عن الصخرة؟ سألته.

– لا، من هنا، أجابني.

وأشار إلى حيث كنّا نقف، عند حافّة الرصيف، حيث التقطت الصورة التي وضعتها في جيبي بعد أن أعطيته أربعة آلاف ليرة.

لكنّنا اتفقنا على ثلاثة، قال مبتسماً.

على الورقة التي أعطاني إيّاها النادل، رسمت ما يلي:



أخذت أضحك. أضحكني منظر القارب الذي رسمته بين الصخرة والشاطئ. بدا مثل وجه ضاحك.

تساءلت لماذا وضعت له شراعاً أصلاً؟

الصخرة المخيفة محاطة بالمياه. والمياه محاصرة بثلاثة جدران صخرية عالية. فوق هذه الجدران مطاعم. تحتها مغاور سوداء. طويت الورقة ووضعتها في جيبي مع الصورة.

رميت القلم نحو الماء.

لم أرَ الدائرة الصغيرة الذي صنعها وسط البحر. قلت إنّه صغير جداً، وإنّه بالكاد صنع دائرة أصلاً.

ليست هذه منطقة مناسبة للانتهاء من الأشياء.

لا.

الموجات الصغيرة أوصلت القارب إلى الشبكة. الرّجل كان قد توقّف عن استخدام المجذاف منذ فترة.

في تلك اللحظة فقط انتبهت: لماذا أحسب أنّ رالف رمى نفسه عن صخرة الروشة؟ ولماذا لا يكون قد رمى نفسه عن ذلك الرّصيف، حيث الشبّان الثلاثة؟ أو حتى من هنا!

قرّرت أنّ عليّ قراءة محضر التحقيق.

أردت أن أعلم أين بالضبط وجدوا رالف.

ومن أين قفز؟

وماذا سألت الشرطة الأشخاص الذين وجدوه؟

قبل ذلك، قمت بتنظيم أفكاري.

كنت أحسب، بسبب من مقالة إلياس خوري وبعض المقالات الأخرى، أنّ رالف رمى نفسه عن الصخرة، فإشارة إلياس خوري إلى حاجز حديديّ هي التي جعلتني أعتقد أنّ رالف رمى نفسه عن الصخرة. فللنزول حتى نهاية اللسان الصخريّ، ومن ثمّ السباحة إلى الصخرة، عليك أوّلاً أن تتجاوز الحاجز الحديدي الأزرق اللّون.

لكنّي حين رأيت، عن السطح، مياه البحر تدفع القارب نحو الشبكة، لا في اتّجاهي، فكرت أنّ هناك خطأً ما. فما الذي جلب رالف، أو جثّته بالأحرى، من هناك إلى هنا؟

شكوكي هذه تعاظمت حين فكّرت في تقرير الطبيب الشرعي وذِكره للثياب التي كان رالف يرتديها.

بنطلون جينز كحلي؟

من يقدر أن يسبح ربع ساعة في بنطلون جينز؟

وهكذا قرّرت أنّ عليّ قراءة «محضر التحقيق» كاملاً. ففتحت الكومودينة، وأخذت أبحث بين الأوراق عن رقم هاتف عبير ج.

- آلو.

- آلو.

- هل أقدر أن أتكلّم مع عبير؟

- أنا عبير. من يتكلّم؟

- أنا ربيع.

- ربيع؟ ربيع جابر؟

- هذا هو اسمي.

- وماتزال حيّاً؟

بعد ثلاثة أيّام التقيتها قرب الجامعة الأميركيّة. كانت تحمل الأوراق داخل ظرف كبير أسمر اللّون.

بدت لي نحيلة جدّاً. ترتدي بنطلون جينز أسود ضيّقاً، وبلوزة زهريّة اللّون. شعرها مجموع في ربطة رفيعة زهريّة أيضاً.

- شكراً، قلت لها.

مشينا على الرصيف أمام محلاّت البوظة والعصير. اقترب ولد متّسخ الوجه والثياب وطلب منها مالاً. أخرجتْ ورقة نقديّة من فئة الألف ليرة وأعطتها له.

فتحتُ الظرف: سبع صفحات من الحجم الكبير.

قالت: لقد صوّرتها لك في مكتب «النائب العام».

قلت لها: شكراً.

للمرّة الثانية.

– لقد مرّت ثلاث سنوات، قالت لي.

كنت شارداً، أنظر إلى امرأة عجوز تمشي على الرصيف المقابل: كانت تحمل كيساً كبيراً مليئاً بالمعلّبات والخضر، وبدا لي أنّها ستقع فوقه في أيّة لحظة، وتخيّلت المعلّبات تتدحرج، وتقع عن الرصيف، وتقطع شارع بلس كهررة صغيرة.

– ثلاث سنوات! قالت مرّة أخرى.

مع بعض الحزن في هذه المرّة.

«مكتبة لبنان» إلى يميني. أخذت أنظر إلى عناوين الكتب.

– أين تسكن هذه الأيام؟

– في الجبل.

– في الجبل؟

قلت لها إنني أعيش في الجبل منذ سنتين.

– مع أهلك؟

كلّ سؤال منها كان يصلح كبداية لفيلم كوميديّ.

نظرت إلى ساعتي، قلت إنّ عليّ أن أذهب، وإلاّ فإنّني لن أجد سيّارة تقلّني من موقف الكولا إلى الجبل.

– هل ستتّصل بي؟ سألتني.

قلت لها إنّني سأفعل. بالتأكيد.

المديرية العامة لقوى الأمن الداخلي
قيادة شرطة بيروت
السرية الإقليمية الأولى
فصيلة حبيش
رقم ٣٠٣/١٧٣١

تاريخ ١٩٩٥/١٠/٢٨

**الموضـوع**: محضر تحقيق حول وجود جثّة في محلّة الروشة بالقرب من مطعم دبيبو وعلى الصخور بمحاذاة البحر عائدة للمدعو رالف ابراهيم رزق الله– لبنان.

في الساعة الخامسة عشرة من يوم السبت الموافق الثامن والعشرين من شهر تشرين الأوّل عام ألف وتسعماية وخمس وتسعون نحن المعاون الأوّل هاشم سرور رقم ٩١٨٢ ضابط عدلي مساعد لحضرة النائب العام الاستئنائي في بيروت التابع فصيلة حبيش ومرتدين اللباس العسكري نثبت أنّه أثناء وجودنا في مركز الفصيلة وردنا اتّصال هاتفي من غرفة عمليات شرطة بيروت مفاده عن وجود جثّة بالقرب من مطعم دبيبو على الصخور المحاذية للمطعم والممتدّة حتى البحر. الجثّة موجودة في أسفل الصخور وبمحاذاة المياه والكائنة في محلّة الروشة شارع جادة الجنرال ديغول. على الفور انتقلنا إلى المكان المذكور يرافقنا كاتب التحقيق العريف محمد بركات رقم ١٦٤٨٤ وبوصولنا إلى المكان المذكور

حيث أجرينا الكشف على النحو التالي(...)

## الكشف على مكان وجود الجثّة

محلّة الروشة شارع جادة الجنرال ديغول الطريق العام بالقرب من مطعم دبيبو وفي قعر الصخور بمستوى المياه وعلى علو حوالي خمسة وأربعين متراً تقريباً يوجد جثّة المدعو رالف ابراهيم رزق اللّه والدته رينيه مواليد جنسنايا قضاء صيدا ١٩٥٠ لبنان يرتدي سروالاً أسود وقميصاً رمادياً حسب مشاهدتنا وعن بعد لم نستطع تحديد أكثر من ذاك في الوقت الحاضر كون الجثّة موجودة بمكان لا يمكننا النزول إليه.

بعد الانتهاء من الكشف صودف وجود المدعو سامي خليل أبو شقرا وشقيق المتوفي المدعو روني إبراهيم رزق اللّه في مكان الحادث وباشرنا باستماع إفادة كلّ منهما على الشكل التالي (....).

## الكشف على الجثّة:

رجل في العقد الخامس من العمر يرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً رمادياً وهو حليق الذقن شعره مبتل بالماء وذو شارب أسود، مطبق العينين، عادي الأذنين، علامات الموت بادية على وجهه، يعتقد أنّ جسمه الكامل هو مكسّر ومحطّم حسب ما شاهدنا رجليه من داخل سرواله... طوله حوالى مئة وخمسة وسبعين سم. نحيف البنية، هذا ما شاهدناه ودوّن. (...)

**ملاحظة:** كلّفنا الطبيب الشرعي الدكتور علي حسن بالانتقال إلى برّاد مستشفى الجامعة الأميركية بغية إجراء الكشف من قبله على جثّة المدعو رالف إبراهيم رزق اللّه ووعدنا بتقديم تقريره الطبي فور إنجازه.(...)

قبل أن أضع «المحضر» في جارور الكومودينة، قرب الصور، أخرجت دفتراً من الصندوق الكبير، وكتبت عليه:

١ – قالت الشرطة: «... على علوّ خمسة وأربعين متراً تقريباً يوجد جثّة المدعو رالف إبراهيم رزق اللّه...».

طبعاً، المقصود هو أنّ رالف موجود في الأسفل وأنّهم هم على علوّ خمسة وأربعين متراً...

لكنّ العبارة بحدٍّ ذاتها أوحت لي بصورة: كان رالف يطوف في السماء، أعلى من المدينة بخمسة وأربعين متراً، وكانوا ينظرون إليه من تحت.

٢ – قال سامي إنّ حلا قالت عن رالف «إنّه أصبح يتعاطى شرب الويسكي أكثر من اللزوم ويتناول بعض الحبوب ويقول لها دائماً إنّه يبصر ويرى في منامه أنّه منتحر على صخرة الروشة».

٣ – قال رونالد، أو روني، إنّ حلا قالت عن أخيه رالف «إنّه كان يتحدّث معها في هذه الفترة قائلاً إنّه يرى الناس كلّهم أشراراً وكأنّه يعيش في غابة ويحلم في مناماته أنّه يقفز عن صخرة الروشة».

٤ – قال رونالد أيضاً إنّه يعتبر وفاة رالف «ناجمة عن شخصه هو».

٥ – رالف لم يرمِ نفسه عن الصخرة بل عن الرصيف قرب

مقهى دبيبو. الرصيف حيث الحافّة المكسورة، وحيث وقف قبل سنة من موته رافعاً ذراعيه، ضاحكاً، وقدماه تدعسان ظلّه.

٦ – الآن أعرف كيف سأبدأ روايتي.

أعدت الدفتر إلى الصندوق، تمدّدت على سريري. كانت الجمل الأولى في رأسي: «كان يُدعى رالف رزق اللّه. في صباح السبت ٢٨ تشرين....»

فجأة أخذت أدوخ، كأنّني أتعرّض لانخفاض سريع في ضغط الدم. بدأ السقف يدور فوقي، انفجر طنين في أذنيّ، أحسست تنمّلاً يسري في الجانب الأيمن من جسمي، وأدركت أنّني أفقد الوعي.

استمر ذلك ثلاثين ثانية تقريباً.

وكلّ ثانية منها بدت كأنّها ستستمر إلى الأبد.

ثم توقّف العالم عن الدوران.

أخرجت علبة Lexotanil من جارور الكومودينة، ابتلعت حبّتين، شربت جرعة ماء كبيرة، تمددت على ظهري مرّة أخرى.

فيما بعد، غفوت.

الثلج يغطّي الشاطئ والبحر.

كما في عام ١٩٢٠.

كما في البطاقات البريدية القديمة.

إني أجلس مع رالف فوق جسر الخشب الذي يعلو صخرة الروشة. نراقب البحر تحتنا، وقد تحوّل سطحه إلى لوحٍ من الجليد. كأنّه لوح من الزجاج. كأنّه مرآة.

– احلم أحياناً انني اقفز من هنا. قال لي.

عند طرف الصخرة دبّ قطبيّ أبيض.

– ماذا يفعل هناك؟ سألني رالف.

– سيقفز، قلت له.

قفز الدبّ.

كان يهوي ببطء.

كأنّ الهواء البارد يمنعه من السقوط بسرعة.

صوت الجليد وهو يتحطّم يشبه صوت الزجاج. للحظة تخيّلت

أنّ الصخرة أيضاً ستتهاوى تحتنا. كأنّها هي أيضاً مصنوعة من الثلج والجليد.

– لماذا قفز؟ سألني رالف.

– إنّه يعيش في تلك المغاور، تحت الجدار الصخري.

– لكن الدبّ لا يتنفّس تحت الماء. إنّه ليس حوتاً.

أجبته أنّني أعلم أنّ الدبّ ليس حوتاً. فلو كان حوتاً لقلت إنّه انتحر. لأن الحيتان تنتحر دائماً.

خرج الدبّ من الماء. تسلّق لوح الجليد المكسور. رفع رأسه ونظر إلى السماء الزرقاء الصافية.

قال رالف: «انظرْ، إنّه ينظر إلينا».

كانت فروته بيضاء – صفراء، وكان مبللاً بالماء.

– إنّه يشبهك. قال لي رالف.

– لا. أنت مخطئ. أجبته.

وقفت ومشيت حتّى الحافّة الغربيّة للصخرة. نظرت إلى البحر. كان لونه أبيض، صحراء لا نهاية لها من الجليد والضوء.

– عيناي تؤلمانني. قال رالف.

– وأنا أيضاً. قلت له.

– هل نقفز؟ سألني.

– هيا بنا، أجبته.

– واحد، اثنان، ثلاثة.

قمت أنا بالعدّ. قفز هو قبلي بجزء من الثانية. كنت مستعداً، ورأيتني أقفز، ورأيت قدميّ ترتفعان عن القشرة القاسية، ثم أهوي.

ووجدتني أصرخ.

كنت أقول لا.

فتحت عينيّ. كنت أجلس على الجسر وحيداً. تحتي كان الجليد يبرق. حدّقت جيّداً فرأيت وجهي. وبين شفتيّ رأيت سيجارة. أخذت منها نفساً عميقاً، ملأت صدري.

ملأت، بالدخان، الثقب في صدري.

# الجزء الأخير

## ... ثم قفز


Twitter: @ketab_n

خلال الأسبوع الثاني من تمّوز، ذهبت إلى «السيوفي» لإعادة الصور إلى بيت أهله.

قال لي الأب: تفضّل.

كذبت قائلاً إنَّ صديقي ينتظرني تحت في السيّارة.

قال اجلس ودَخِّنْ سيجارة، قلْ له أن يصعد.

في لحظة خاطفة أمكنني أن أتخيّل رالف في الموقف ذاته: لقد جاء لإيصال غرض وعليه أن يذهب إلى عمله في الجامعة. لكنّ والده يريد أن يجلس معه قليلاً، أن يدخّن معه سيجارة.

فيقول له رالف: حسناً، سيجارة واحدة فقط.

كرّر الأب: قلْ له أن يصعد.

فقلت: يمكنه أن ينتظر، أقدر أن أدخّن سيجارة.

سألني كيف أحوالي؟

قلت إنّني بخير.

كان في قميص فانلة أبيض، و«شورت» أزرق اللون. أخرجت

الصور من المغلّف ثم أعدتها إليه. نفض رماد السيجارة في المنفضة. نظرت باتجاه بوّابة الشرفة. أمسك بالقدّاحة ثم أعادها إلى الطاولة. نظرت إلى أصابعي.

بطرف عيني رأيته يُخرج من بين الصور تلك الصورة التي سحرتني: هو ورالف في البهو في بيت الخالة، الأب يتظاهر بالنوم، الابن ينظر إليه ضاحكاً.

- كان دائماً مولعاً بي، قال.

وقال إنّه، ذات مرّة، تأخّر في العودة إلى المنزل. كان رالف في التاسعة من عمره، والأب يعمل في دوام ليليّ مؤقّت في شركة Shell. فغافل رالف أمّه ونزل بسيّارة الأجرة إلى الشركة، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، كي يطمئنّ إلى أبيه.

- وجدته فجأة أمامي، ماذا تفعل هنا، سألته، وكان فقط يبتسم لي وقال إنّه كان مشغول البال عليّ.

أشعل سيجارة أخرى.

- كان يحبّ الكتب. كنّا نسكن في «بناية العسيلي». كنت قد خصّصت له غرفة فيها مكتبة. كنت أعطيه المال فلا يشتري شوكولا أو بوظة أو أيّ شيء من هذا. يأخذ المال وينزل ليشتري كتباً. يقضي النهار وهو يقرأ. أقول له انزلْ والعبْ مع الأولاد، فيبتسم لي ويتابع القراءة. حتى في اللّيل، كان يسهر أحياناً حتى الفجر، كي يقرأ كتاباً استعاره من أستاذ أو معلّمة لمدّة يوم واحد فقط.

دخلت الأم، نظرت إلى مغلّف الصور.

سألتني هل كتبت الكتاب.

فلأنّ نظرها ضعيف حسبت المغلّف كتاباً.

أجابها أنّ هذه صور رالف، وأنّني لم أنتهِ من الكتاب بعد. ثم أعطاها علبة الدخان خاصتّها.

أخذت العلبة. وبيدين مرتجفتين، أشعلت لنفسها سيجارة. وابتسمت لي ثم جلست على الكنبة البعيدة.

أخرج الصور وبدأ يتفرّج عليها.

أطفأت سيجارتي في المنفضة.

خرجت الأمّ إلى الشرفة.

كان الآن يمسك بالصورة التي تظهر فيها الخالة وهي تضع سيجارة بين شفتيها، وتجذب نفساً عميقاً منها.

قال لي: «كان يحبّها كثيراً. رمت نفسها عن الشرفة. كان في السادسة عشرة. ذات مرّة قال لي إنّه يريد أن يدرس علم نفس كي يعرف لماذا فعلتْ ذلك؟ وفي الآخر فعل هو...».

كان يريد أن يقول إنّ رالف فعل الشيء نفسه. ولم يقطع جملته. فقط بات صوته خافتاً جدّاً. كأنّ تيّار هواء قد عَبَر بيننا كاشحاً الكلمات كأنّها دخان. لم أسمع إلاّ صوتاً خافتاً يشبه كلمات تتلاشى. ثم صوتاً يشبه البكاء.

قال إنّ أصعب شيء هو أنّه لا يفهم. لا يفهم ما هو الشيء الذي كان يلعب في رأسه.

يقصد رأس رالف.

يقصد حين فعل ذلك.

فكرت بكلمات أقولها: إنّي أقرأ في كتاب لشاعر برتغاليّ اسمه فرناندو بسّوا. إنّه يقول إنّ النّاس عبارة عن جزر منفصلة تقع في بحر واحد. أنا جزيرة وأنت جزيرة ورالف كان جزيرة. كلّ واحد منا جزيرة أو صخرة تقع وسط الماء. هذه المياه تسمح لنا بالاتّصال ببعضنا بعضاً. لكنّها أيضاً تمنعنا عن الاتّصال حقّاً، ومن التلامس

فعلاً. ولهذا السبب يستحيل عليك أن تفهمني أو تفهم رالف. وكذلك الأمر بالنسبة إليّ أو إليه. بكلام آخر، لا أحد يفهم أحداً. المياه تأتي وتذهب بيننا. تجلب إلى جزيرتي بعض الأتربة والصخور التي حملتها من جزيرتك، فأفهم عنك بعض الأشياء. وإذا كنت غبياً أفكّر أنّ هذه الأشياء هي أنت، وأنّ هذه الأتربة التي وصلت إليّ من جزيرتك، هي جزيرتك نفسها، جزيرتك كلّها. رغم أنّها في الحقيقة ليست إلاّ جزءاً يسيراً منك. هل فهمت قصدي؟

بقيت صامتاً، لم أقل شيئاً.

– لا أفهم، كرّر مرّة أخرى، كأنّي لم أكن أعرفه.

فكرت في كلمات أخرى: يمكنك أيضاً أن تفكّر أنّ الإنسان هو في الحقيقة مجموعة كبيرة من الأشخاص. أنت مثلاً: إنّك الشيخ المليء بالحيرة والحزن الجالس أمامي الآن. لكنّك أيضاً الرجل الذي كان قومياً وكان أيضاً متعهّد بناء. وأنت في الوقت نفسه المريض صاحب القدمين المتورّمتين. وأنت رجل قويّ رغم أنّك عجوز. وأنت وأنت... وكلّ واحد من هؤلاء شخص حقيقيّ. وكلّهم أنت، فكلّهم يملكون ظلاً واحداً فقط. حاول أن تفكّر في التناقضات بين هؤلاء، في الصراعات التي يعيشونها، بعد ذلك لن تعود قادراً على فهم نفسك. كأنّك لا تعرف نفسك. فكيف تريد أن تعرف من كان فلاناً أو فلاناً؟

عادت الأمّ وجلست على الكنبة، ثم نهضت ودخلت إلى غرفة النوم.

– ألا تريد قهوة، اشربْ معي قهوة، قال لي الأب.

أحسست بالخوف، قمت واقفاً.

في الجامعة بات، خلال الفترة الأخيرة، لا يتكلّم مع أحد. يبدو شارداً على نحو دائم، وحين يناديه أحدهم - أحد التلامذة، أو أحد الأساتذة - يتابع طريقه كأنّه لم يسمع شيئاً.

يرونه راكضاً ثم يختفي خلف أحد الأبنية.

لم يعد بينهم.

كأنّه يتحرك في عالمٍ ليس عالمهم.

قال لزوجته إنّه بات يرى العالم كغابة، غابة مليئة بالنّاس الأشرار. قال لشخص آخر، في السبت الذي سبق السبت الأخير، إنّه لم يعد يرى وجهاً واحداً أليفاً. أينما يذهب لا يرى إلاّ غرباء. حتى الأصدقاء. كلّهم غرباء. في بيته، في عمله، في الشارع، في المدرسة، كأنّهم ليسوا، كأنّه ليس، كأنّ...

تلعثم بكلماته ثم صمت واستدار.

في «الملحق» سأله بسّام حجّار، في آخر مرّة رآه، هل يكتب لهم - أي للملحق - شيئاً.

رسم رالف، كالطفل، إشارات، في الهواء، وقال إنّ ذلك كلّه بلا معنى. ثم غادر راكضاً.

كان كأنّه قد عاد طفلاً.

امتلأ بالخوف، بالوحدة.

لكنّه كان قد عاش خمساً وأربعين سنة.

هكذا لم يعد يملك أهلاً داخل رأسه.

لا أب ولا أمّ ولا من يحزنون.

ووجد نفسه وحده.

ففكّر في خالته: كانوا يزورونها دائماً، كانوا حولها دائماً، لماذا وجدت نفسها وحيدة هي أيضاً؟

طوال هذه السنوات لم يدرك الجواب.

الآن يعلم:

وجدت الخالة نفسها وحيدة حين لم تعد قادرة على نسيان مناماتها. طافت المنامات كبحر، غمرت أيّامها كلّها. باتت المنامات ثقباً عميقاً داخل صدرها.

قالت الخالة: «أرى نفسي في بستان من أشجار الليمون. إني أركض وحدي. هناك صوت يناديني. يشبه صوت أبي، لكنّه ليس صوته. أركض وأركض. لكنّي أبقى في المكان ذاته، ولا أتحرّك خطوة واحدة من مطرحي».

– لكنّه منام فقط، قالوا لها.

فقالت إنّها لا تقدر أن تنساه. كلّما جلست على الكنبة تتذكّره. وحين تتذكّره يكون الأمر كأنّها ترى المنام مرّة أخرى. وحين تنتبه ترى العرق على جبهتها وتسمع صوت اللهاث خارجاً من صدرها.

– أركض وأركض وأبقى في مكاني والصوت ينادي عليّ. أريد أن أصل إليه، لا أريد أن أبقى وحدي، لكنّي لا أتقدّم خطوة واحدة.

في منام آخر، ترى شاباً كانت تعرفه قبل سنوات بعيدة. إنّهما يجلسان على الأرض، يلعبان «الداما».

هي تلعب بالحجارة السوداء.

هو بالحجارة البيضاء.

تمزح معه فتقول إنّه حرّك حجراً أسود، حجراً من حجارتها، وتقول إنّه يغشّ وإنّها رأته.

هو لا يدرك أنّها تمزح فيقف ويخبط رقعة الداما والحجارة المصفوفة فوقها. ثم يغادر البيت.

- إنّه منام مضحك، ما الذي يبكيك فيه؟ يسألونها.

- لكنّه لا يعود، إنّه يغادر ولا يعود.

تقول إنّه «يغادر ولا يعود»، تقول إنّه بعد ذلك «لن يعود أبداً»، ويختنق صوتها.

رالف تذكّر منامات الخالة وهو يكتب آخر نصّ له. كان يفكّر فيها وفي نفسه فتذكّر أغنية فرنسية:

«لم تكن تحبّه، هو أيضاً لم يكن يحبّها

طريفة هي الحياة

كان من الممكن أن يتعارفا

غير أنّ أحدهما لم يرَ الآخر أبداً»

قال لابنته إنّ لدى كلّ إنسان سرّاً لا يبوح به لأحد. ما هو سرّ رالف؟

في السوربون كان قد قال لنفسه إنّه يحبّ أهله كثيراً، لكنّ أهله ليسوا حياته.

ثم تزوّج.

في ما بعد، قبيل موته، قال لنفسه إنّه يحبّ زوجته كثيراً، لكنّ زوجته ليست حياته.

قال إنّ أهله ليسوا حياته، حين وقع في الغرام. في ما بعد، قال إنّ زوجته ليست حياته لأنّه أدرك فجأة أنّه لا يعرفها، أنّها لا تعرفه، وأنّهما غريبان عن بعضهما.

قال لها ذلك فظلّت صامتة.

لم تدرك أنّه قد أخبرها سرّه: أنّه قد بات وحيداً كنرسيس، كدبّ قطبيّ.

بعد أيّام أخبرها أنّه حلم بأنّه يقفز عن صخرة الروشة. وهي قالت لي، بعد موته، إنّها لم تدرك أبداً مقدار التعب الذي كان قد سيطر عليه خلال الفترة الأخيرة.

كان يريد أن يسألها كيف أصبحت بعيدة إلى هذا الحدّ. لم يقدر، كان يقول ذلك ثم يضحك، كي لا يؤذيها بكلامه، كي لا يبكي، كي لا يزعج الأولاد.

يُغلق على نفسه باب غرفته، يدخّن حتى تتحوّل الغرفة إلى بالون منفوخ بالدخان، يكتب بعض الكلمات مستخدماً جهاز الكومبيوتر، ويبكي.

كان يبكي كثيراً في الفترة الأخيرة، قالت لي حلا.

أدرك أنّه يقف على الحافة.

قال ذلك لابنته أيضاً: «لن أبقى بينكم طويلاً».

كتب على جهاز الكومبيوتر أنّه سيغادر إلى عالم السكوت.

كان يتهيّأ للقفز.

إنّه يمشي صوبي ضاحكاً، شعره أسود قصير يَخِطُهُ الشيب. نحيل وطويل القامة. يرتدي بنطلون جينز، وقميصاً كاكياً قصير الكمّين. يفتح ذراعيه ويطلق ضحكة. في إحدى يديه الحقيبة البنّيّة التي يضع فيها أوراقه الشخصية، وفي الأخرى علاّقة المفاتيح.

يسألني عن آلة التصوير التي أحملها.

- إنّها من نوع بولارويد، للتظهير الفوريّ.

تخرج صورته من الآلة، فأريه إياها. في الخلفيّة بنايات وسماء. إلى يمينه حافّة الرصيف تبدو مكسورة.

- «ليست سيّئة، انظرْ ضحكتي الكبيرة». يقول، ويضحك مرّة أخرى. ثم يصمت فجأة.

نجلس على حافّة الحائط القصير، البحر تحتنا. يضع علاّقة المفاتيح والحقيبة البنّيّة بيننا. آخذ الصورة منه وأضعها في جيبي، حيث صورة الصخرة.

- سأخبرك سرّاً، يقول لي.

التفت صوبه: نظارته سوداء كبيرة.

يقول: «أحياناً أنظر إليك من المرآة، حين تكون نائماً. أرى وجهك كأنّه وجه أبي، وأحياناً كأنّه وجهي. هل تصدّق؟ وفي بعض الأحيان ترسم على وجهك تكشيرة تشبه تكشيرة كلب. البعض يظنّون أنّها

ضحكة غير مفهومة».

أخبره أنّها ليست تكشيرة كلب.

– أعلم، أعلم، إنّها تكشيرة دبّ، لكن الدِّببة تشبه الكلاب.

– الدبّ القطبيّ لا يشبه الكلاب.

ننطلق في ضحكة واحدة.

يقول لي: الذي يسمعك تدافع عن دبّك القطبي يعتقد أنّه والدك أو ابنك.

أقول له إنّني متعب.

– لماذا؟ يسألني.

– الصداع. أجيبه.

– عليك أن تعتادَهُ، أن تتأقلم، إنّه كأيّ شيء آخر، كعملك في الصحيفة، كإيجار بيتك، كالنّاس...

– نصائح أستاذ علم نفس حائز على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون؟ أسأله.

يبتسم.

تعبر سيّارات، خلفنا صوت البحر.

تبدو السيّارات الصاعدة في الطلعة كأنّها تتّجه صوبنا، بسبب المنعطف القريب. نرى مقدّمة السيّارة كأنّها توشك على تسلّق الرصيف ودفعنا إلى البحر، ثم نرى السائق يجاهد كي يدير المقود في الاتِّجاه الصحيح، كي يلفّ المنعطف القويّ ويتابع السير دون أن يحيد عن الطريق.

الهواء رائحته ملح وقاذورات.

ضجّة السيّارات فظيعة.

كذلك الضجّة القادمة من ورش البناء الكثيرة.

- هذا الركض، هذا النشاط، هذا الطموح كلّه.

- أمر مقرف، مقزّز، بلى، أعلم.

- كاره البشر.

- كاره الحياة.

ينزع نظّارتيه.

أرى الشرايين الحمراء حول بؤبؤيه.

أخبره أنّني لم أكن أعلم.

- بلى، يقول لي، في الفترة الأخيرة بات صداع رأسي رهيباً.

- ولهذا كنت تبكي!

- بالطبع.

يتلاشى ضوء النهار.

نرى عمود ضوء يشقّ السماء ويدور.

- إنّها المنارة، أقول له.

السيّارات أضاءت مصابيحها الأمامية.

- يجب أن أذهب، يقول لي.

- حسناً. أقول.

وقف وأعطاني آلة التصوير خاصتي. ثم وضع النظّارة السوداء.

- كي لا تخبطني المياه المالحة، قال لي.

ووضع علاّقة المفاتيح في جيبه.

- إلى الغَد، قلت.

- في الوقت نفسه، قال.

تسلّق الحافة.

شرّع ذراعيه.

دخل الهواء تحت قميصه، نفخه.

نظر إليّ وابتسم.

تلك الابتسامة المحفورة تحت جفنيّ إلى الأبد.

بلا انتباه، بلعت ريقي. ورأى ذلك، فقال لي إنّ عليّ أن أنسى:

- يجب أن تنسى. تخيّل أنك لم تنظر إلى الأرض آنذاك. تخيّل أنك ابتسمت لي ثم تابعت طريقك. أصلاً كان المدخل مزدحماً، وأنا بالكاد لمحتك. يجب أن تنسى.

- إني أحاول، قلت له.

- هذا أمر حسن، قال لي.

- حتى نلتقي، قلت.

- وداعاً هامبتي، قال مسرعاً.

ورأيته يلتفت إلى حيث لا أعلم.

ثم قفز.

تمّت

# الفهرس

١- كان يُدعى رالف رزق الله ........................................ ٧
٢ - «هل نقفز؟»، سألني ................................................ ٣٩
٣ - ثم قفز ......................................................... ١٦٩

# للمؤلّف

روايات صدرت عن دار الآداب:

شاي أسود، ١٩٩٥.
البيت الأخير، ١٩٩٦.
رالف رزق الله في المرآة، ١٩٩٧.


Twitter: @ketab_n

الآداب
دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص.ب ١١-٤١٢٣ بيروت

كان يُدعى رالف رزق اللّه.

في صباح السبت ٢٨ تشرين الأوّل ١٩٩٥، أوقف سيّارته التويوتا الخضراء بمحاذاة الرصيف أمام مقهى دبيبو، ثمّ ترجّل منها مسرعاً، وتسلّق الحافة الحجريّة القصيرة، وقفز إلى الفضاء.

قبل أن يقفز شرّع ذراعيه كالصليب. خلفه بيروت، وقبالته صخرة الروشة. كان يرتدي بنطلونه الجينز القديم، والقميص الكاكي الذي اشتراه قبل سنتين.

كان في الخامسة والأربعين من عمره.

ورمى نفسه.